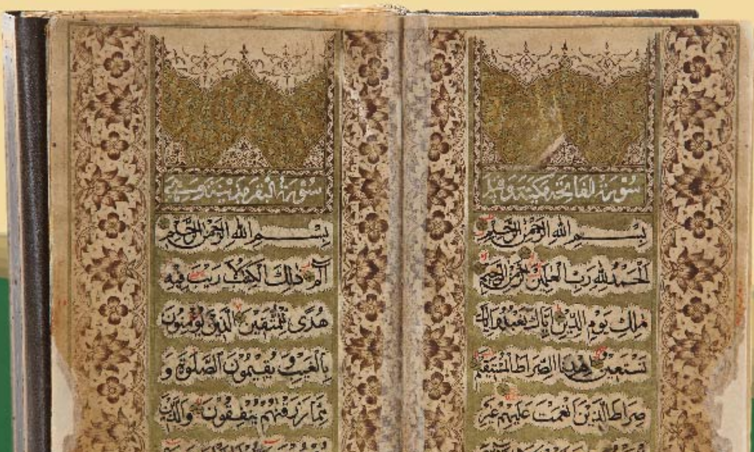
قَوَاعِدُ التَّبْيِينِ لِآيِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ المُبِين

مقدمات ممهدات في أصول التفسير



سعيد النكر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض مراكش

الطبعة الأولى: 1444 هـ / 2022 م

قَواعِدُ التَّبْيِينِ

لِآيِ اللِّسانِ العَرَبِيِّ المُبين

مقدمات ممهدات في أصول التفسير

سعيد النكر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض مراكش

بسم الله الرحمن الرحيم

قَواعِدُ التَّبْيِينِ

لِآيِ اللِّسانِ العَرَبِيِّ المُبين

﴿مقدمات ممهدات في أصول التفسير﴾

المؤلف: سعيد النكر

الطبعة الأولى: **1444هـ/2022م**

الإيداع القانوني: 2022MO4753

الترقيم الدولي: 978-9920-40-751-9

الطباعة: **رؤى برينت – سلا**

مقدمة:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،

وبعد، فاعلم أيها المقبل على طلب العلوم الشرعية أن علم التفسير علم شريف الغاية، رفيع الرتبة، جم الفوائد، من ظفر به نال حظوة المقام الرفيع بين أهل العلم، ومن حازه حاز الرفعة، ومن تمكن من أصوله تمكن من ناصية العلم الشرعي، وانفتحت أمامه أسرار الهدي القرآني، وأضاءت أمامه سبل الأسرار الربانية في الكتاب الحكيم، وهتك حجاب المعاني القرآنية والعبر والفوائد اللغوية، واستنار فكره بالدلالات الغالية والمرادات العالية، واستفاد الحكم والأحكام، واستخرج القيم الأخلاقية والحقائق الإيمانية، وظفر بزبدة الأخبار ولطائف الإشارات، ولا يستقيم كل ذلك إلا بالتعرف على مبادئ علم التفسير وأصوله ومظان الظفر به.

فقد أكرم الله عز وجل العباد بالذكر الحكيم والكتاب المبين، الذي فيه خبر السابقين، وهدي العارفين، وشريعة الموحدين، ونظام الدنيا والدين، وهو الكتاب الذي لا يتم نفعه ولا تُنَالُ فضائله إلا بقراءة وفهم وتدبر وعمل، وكل ذلك يتطلب منهجا في القراءة وأساليب في التأويل ومبادئ للتفسير، وهذا ما اهتم به علماء الأمة على مد عصور تاريخ هذه الأمة، فتركوا لنا إرثا غنيا من التفاسير المستقلة والمندرجة في العلوم المختلفة من علوم البيان والفهم والإعمال لكلام الله عز وجل، وهو ما جمعه علم التفسير، الذي يعد من أشرف العلوم وأرفعها مقاما، علم لا بد لطالب العلوم الشرعية من الإلمام به ومعرفة خصائصه ومناهجه وأصوله وقواعده ومبادئه وأمهات الكتب فيه، وهذا ما شغل الكثير من العلماء الأفذاذ الذين جعلوا غايتهم وضع قانون للتفسير، وهو ما سنسعى لبيان معالمه وخصائصه سائلين الله عز وجل أن ييسر فسحة من الوقت وسدادا في الفكر ونورا في القلب، فالتفسير وما حام في حماه أمر جليل يستدعي نقاء القلوب وصفاء النيات وطهارة النفوس، وهذا ما نرجو الكريم تحقيقه لنا ولطلبتنا الكرام عسانا ننهل من معين النور القرآني العظيم.

أصول التفسير قانون فهم القرآن

لماذا يحتاج المسلم قانونا للتفسير؟

إن حاجة الإنسان المسلم أساسية لقانون تأويلي يمكنه من إدراك كنه كتاب الله عز وجل وفهم خطابه وحسن تلقي مراداته، وهو القانون الذي تستدعيه ضرورات عدة حضارية وتشريعية وثقافية، نذكرها مختصرة كما يلي:

- الضرورة الحضارية:

يقول الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، إن مهمة العباد الأساسية العبادة لرب الكون وإقامة شرعه ورعاية أمره في مهمة الاستخلاف التي وكلت له من دون المخلوقات، ولا استخلاف من غير عمران، ولا عمران من غير رشد وإحسان، ولا فلاح ولا صلاح في الفعل العمراني البشري من غير قانون يضبط حركة وتصرف العباد، ولذلك نزل الوحي على مراحل متفرقة بحسب نضج العقل البشري واستعداده للرشد وتقبل الشرائع، إلى أن اكتمل الأمر في شريعة الإسلام، التي ارتضاها الرحمن شرعة للعباد إلى يوم اللقاء، واستودع كل ضوابط هذه الشرعة في كتابه العزيز، الذي جمع فيه كل ما يمكن أن يحتاجه الإنسان لتحقق مقصد الصلاح العمراني والرشد الإنساني، يقول الله عز وجل: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾، وهذا ما يبينه قول أبي بكر الصديق ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى عمَّر محمدا ﷺ وأبقاه، حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك، وقد ترككم على الطريقة. فلن يهلك هالك إلا من بعد البينة والشفاء، فمن كان الله ربه، فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمدا وينزله إلها، فقد هلك إلهه، واتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة، وإن الله ناصر من نصره ومعز دينه، وإن كتاب الله عز وجل بين أظهرنا، وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمدا ﷺ، وفيه

حلال الله وحرامه"، وفهم هذا الكتاب المصدر الذي فيه اجتمع الدين كله يستدعي منهجا للتأويل وقانونا للتفسير.

- الضرورة التشريعية:

إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش دون قوانين تنظم حياته وتشريعات توجه سلوكه وتصرفاته الفردية والجماعية، سواء في علاقته مع نفسه أو مع ربه أو مع أسرته وعشيرته، أو مع أهل قطره وأفراد مجتمعه، وتنزيل الأحكام وتطبيق القوانين في حياة الفرد والجماعة يستدعي نصوصا مرجعية لذلك، يظفر منها بالأحكام ويلجأ لها عند الاختصام، وهي لا تبوح بأسرارها التشريعية إلا بقراءة تأويلية متوسلة بالعدة المنهجية اللازمة لذلك، فكان لا بد من قانون تأويلي لإدراك مرادات هذا الخطاب الجامع، والكلام الشامل، والنظام الرباني القويم المجموع بين دفتي المصحف الشريف.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله مبينا لهذه الشمولية التشريعية والكفاية القانونية في كتاب الله عز وجل: "ليست تتنزل بأحد نازلة في الدنيا إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها"، ويقول كذلك: "وليس لأحد أبدا أن يقول في شيء حَلَّ ولا حَرُم إلا من جهة العلم، وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس".

- الضرورة العلمية المعرفية:

وقد أوكل الله عز وجل مهمة البيان والتنزيل لأحكامه للنبي محمد صلى الله عيه وسلم أولا، ثم لورثته من العلماء ثانيا، وجعل الخطاب القرآني خطابا كليا ليستطيع مواكبة تغيرات وأحوال الأزمان والأعصار، وأودع فيه أسمى آيات البيان وأعلى صور النظم الحسن والمعنى، وضمنه تصديقات القلوب وتصورات العقول ومبادئ الأخلاق وضوابط التربية وأساليب الاستدلال ومظاهر الإبداع والصنع وقوانين الاجتماع

وقواعد الحكم وحكم وعبر الماضين وسنن التاريخ وأحكام العبادات والمعاملات وحدود وعقوبات الجنايات وكليات التشريع ومقاصد الشرع.

إن القرآن الكريم مرجع الناس أجمعين إلى يوم القيامة، خاصة بعد وفاة النبي ﷺ متلقي الوحي والمسؤول الأول عن التشريع، فبوفاته انقطع الوحي من السماء، لأنه هو الواسطة بين الأرض والسماء. إنها ملامح علاقة تواصل جديدة بين الله وعباده، انتهى فيها دور الرسل والأنبياء، ليحل محلهم علماء الأمة ورثة الأنبياء، مع توجيه الله عباده لتلقي أمر دينهم من أهل الذكر، باعتبارهم المخبرين عن الله فيما تعبدهم به من أوامر ونواهي: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾، وهؤلاء العلماء لا يمكنهم تحقيق المطلوب في ولايتهم العلمية ونيابتهم عن النبي ﷺ إلا بقانون تأويلي، يضم قواعد للفهم، وضوابط للتأويل، تقيهم التيه وسوء الفهم أو الفهم المغرض المارق المتنصل من قواعد التخاطب وقوانين الاستدلال وضوابط الفهم والتلقي للخطاب.

إذ لا يمكن الظفر بمكنونات كتاب الحكيم العليم إلا بقانون يجمع قواعد وضوابط وسبل فهم الكتاب العظيم، إنه قانون تفسير وتأويل خطاب الوحي، يقول الزركشي رحمه الله: "لا يستغنى عن قانون عام يعول في تفسيره عليه، ويرجع في تفسيره إليه، من معرفة مفردات ألفاظه ومركباتها، وسياقه وظاهره، وباطنه، وغير ذلك مما لا يدخل تحت الوهم ويدق عنه الفهم"، إنه قانون يسعى لفهم خطاب الوحي في بيانه ولغته ومنطق استدلاله ومنهج إدراك مراداته وكيفية استخراج أحكامه والظفر بمعانيه القلبية وتصديقاته العقلية وقيمه الأخلاقية ومبادئه التربوية، قانون لضبط طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة مثل مسائل الفحوى، ومفهوم المخالفة، وأوجه الأوامر والنواهي والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد، إنه قانون يضم مبادئ عامة موحدة مشتركة لبناء قواعد لتفسير الكتاب الحكيم يكون آلة للمفسر تقيه الزلل في فهم كتاب الله والتيه في إدراك مراداته، لأن كل زيغ في ذلك سينعكس لا محالة على سلوك العباد وأفعال المكلفين وآثارها في الكون والوجود.

- الضرورة الثقافية:

فمع اتساع رقعة الإسلام وانتشاره بين الأقوام والطوائف والأقطار أقبل على الإسلام أصحاب الأهواء والمصالح والملل المارقة والنحل الشاذة، وكلهم اقبلوا على القرآن والسنة طلبا للحق أو قصدا للإغواء والمس بالملة وعقائدها وتشريعاتها، فكان منهم الصادقون الذين أخلصوا النية وقصدوا التثبت من الحق بالمنهج القويم والفهم السليم فنالوا المراد وزيادة، وكان منهم الصادقون المبتغون للحق، لكن زاغت بهم الوسائل وضلت بهم الفهوم فأساؤوا للمعرفة الإسلامية من حيث لم يريدوا ذلك، وأساؤوا للفهوم والعقول وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا، ومنهم من فسد غرضه وساءت وسيلته وضل فهمه، فجاء تأويل المغرضين بالفساد العظيم في الملة والعقيدة الذي انعكس على تاريخ الأمة المعرفي والسياسي والديني بالشر والفساد والمروق في الفكر والاعتقاد والسلوك، دون الحديث عن تعدد الوجوه التفسيرية التي لا يثبت ورودها جميعها عن الشارع، مما يستلزم الحذر والتمحيص والترجيح بين الأقوال والآراء المختلفة في تفسير آي الكتاب بين اللائق منها وغير اللائق، وبين القريب والبعيد من التأويلات، وفي ذلك يقول الطوفي رحمه الله: "إذا ثبت ذلك، وأن علماء الأمة سلفا وخلفا قالوا في التفسير باجتهادهم مما لم يثبت أخذه بخصوصه من الشارع وجب وضع قانون يتوصل به إلى علم التفسير فنقول وبالله التوفيق"[1]، ثم شرع في بيان بعض ضوابط تفسير ما لم يكن ظاهر المعنى نصا.

وهكذا استدعت الضرورة الثقافية، أمام هذه التحولات في طبيعة العقل التأويلي المتأثر بالوافدين الجدد، أن يتصدى علماء الأمة من مختلف المشارب لصيانة فعل التأويل بالمنهج القويم بوضع القواعد والضوابط التأويلية اللائقة الصحيحة، صيانة للملة عقيدة وسلوكا وتشريعا بصيانة الفهوم والعقول من الزلل في فهم كتاب الله

1 - نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص 39.

وقد أتبع هذا الكلام ضوابط مهمة في التعامل مع التفسيرات المتعددة والمتباينة بل والمتناقضة أحيانا للآية الواحدة، بالاحتكام إلى الشرع وحقائقه ولمنطق العقول ولمسلمات الفطر السليمة، نظر الصفحات 39-43.

وإدراك مرادات الشارع في خطابه، لأن كل زيغ في ذلك سينعكس لا محالة على سلوك العباد وأفعال المكلفين وآثارها في الكون والوجود، وهذا من فضل الله على هذه الملة والشرعة الكريمة. يقول النبي ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين".

لكن يبقى السؤال المطروح هو: أي من العلوم يصلح للتصدي لهذه المهمة التفسيرية التأويلية العظيمة؟ وأي العلوم الإسلامية يصلح قانونا للتفسير ومنهجا للتأويل؟ وهل هو علم واحد أم علوم عدة متضافرة لبلوغ المراد؟ وهل يمكن الحديث عن علم واحد سماه البعض "أصول التفسير" أم عن علوم مختلفة تكاملت وتعاونت للقيام بهذه المهمة لتشكل قانون التفسير وكيف يتم الظفر بالمعنى القرآني؟ وما مشروعية هذا العلم بجانب علوم أخرى شملت وضمت الكثير من مباحثه؟ أسئلة وغيرها سيروم هذا المسطور بين ثنايا هذا الكتاب التماس أجوبة علمية لها بحول الله وقوته.

علاقة علم أصول التفسير بالعلوم الشرعية الأخرى في المعرفة الإسلامية.

إن التمييز بين العلوم الشرعية اقتضته الضرورة العلمية، فهي ليست جزرا متفرقة متنافرة متباعدة، بل كلها تدور في فلك كتاب الله، وتسعى لتبيينه وبيانه، كل بحسب مطالبه ومجال اشتغاله، بل بعضها يكمل البعض الآخر، فعلوم القرآن شاملة عامة مستوعبة لكل ما يتم به المراد من الوحي، فهما واعتقادا وفقها وسلوكا، فتتكامل العلوم الشرعية والعلوم المنهجية البشرية لتحقيق الفهم واستخراج المعاني والمرادات، من شعر ونحو ومنطق وأصول وبلاغة وفقه وكلام، وهكذا فمدار العلوم الشرعية حول عنصرين أساسيين: أولها: فهم خطاب الوحي، ثم تنزيل هذا الخطاب في واقع الناس، وذلك من أجل غاية يبتغيها التفسير وهي: فهم خطاب الوحي ليتحقق مراد الله من العباد المتمثل في الإعمار الراشد للأرض، والاستخلاف على منهج رباني قويم.

فكل العلوم الشرعية متضافرة متعاونة في بيان مرادات الله عز وجل وبيان الأحكام والأوامر والنواهي التي تعبدنا الله بها، وقد نزل الله الشرائع منجمة على حسب تطور ونضج الفكر الإنساني عبر التاريخ البشري، كما جمع الشرائع كلها في صورة خاتمة شاملة مهيمنة على ما سبق من التشريعات في صورة مكتملة، وهي شرعة الإسلام التي ارتضاها الله للعباد إلى يوم القيامة، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾، ﴿ "إن الدين عند الله الإسلام﴾.

وقد تنوعت أوجه البيان في الخطاب الشرعي فمنها:

- العقدية: التصورات العقدية والتصديقات القلبية والمعاني الروحية والعقائد الإيمانية.

- الأخلاقية: القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية.

- التشريعية: الأحكام والقواعد التشريعية.

- التربوية: مبادئ تربية وتزكية الأنفس ورقائق إصلاح القلوب.

وتعدد أوجه البيان في خطاب الوحي عامة وفي النص القرآني بشكل أساس أدى إلى تعدد أوجه التبين، فوجدنا في مدارس التفسير:

1- التفسير اللغوي.

2- التفسير الفقهي.

3- التفسير العرفاني الإشاري.

4- التفسير الأخلاقي السلوكي التربوي.

5- التفسير العقدي الكلامي.

وهذه الأنواع من مدارس واتجاهات التفسير لا توجد مستقلة عن بعضها البعض دائما، بل نجد بينها تداخلا وتعاضدا في التفاسير القديمة والحديثة، ومن هذه المنطلقات يتبين أن علم أصول التفسير يربط علاقات ووشائج مع الكثير من العلوم الشرعية الأخرى، فهو نظام بيان كلام الله عز وجل الذي اشتمل الدين كله، وهو قانون بيان للقرآن الذي شمل كل احتياجات الإنسان الروحية والنفسية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والتشريعية، وحول كل واحدة من هذه ترتب علم أو عدة علوم في المعرفة الإسلامية.

كما أن علم التفسير له موارد عدة، فلا تفسير لكتاب الله عز وجل دون لغة، ولا تفسير دون فقه، ولا تفسير دون أصول، ولا تفسير من غير معرفة بالناسخ والمنسوخ، ولا تفسير بدون معرفة المحكم من المتشابه، ولا تفسير من غير إدراك لأساليب البلاغة العربية، ولا تفسير من غير حديث نبوي شريف ولا تفسير بدون شعر، ولا تفسير من غير إدراك لمبادئ المنطق وقواعد الاستدلال في الكتاب العزيز.

ومن هنا فعلم أصول التفسير علم تتجاذبه علوم أخرى تنازعه مبادئه وقواعده وأصوله التأويلية، وهو علم تفرقت مباحثه وقواعده وضوابطه بين العلوم المختلفة، خاصة وأن الكثير مما يتداوله المفسرون من قواعد تفسيرية وضوابط تأويلية هي أقرب للغة، بل هي من صلب اللغة والبلاغة وقواعدها الدقيقة، أو للأصول وباب الدلالة فيه، أو للمنطق وقواعده، وهذا يضعنا أمام حقيقة لا بد من الإشارة إليها، وهي أن علم "أصول التفسير" قد تفرقت قواعده ومبادئه بين علوم شتى من لغة وبلاغة ومنطق وأصول، وهذا ما أشار له الكثير من العلماء القدماء والمحدثين. وسيجد القارئ بعضا من ذلك طي المسطور في هذا الكتاب.

وهذا التفرق لمباحث وقواعد أصول التفسير بين العلوم المختلفة يدعو للقول بأن علم أصول التفسير لا يمكن أن يستقل بذاته مهما حاول العلماء، وقد سعى البعض قديما وحديثا لتحقيق هذه الاستقلالية، لكنهم لم يجدوا لذلك سبيلا، فهو علم لا ينكر أحد وجوده وأهميته وفعاليته ودوره المنهجي في صيانة وتقويم وتهذيب وترشيد فعلي التفسير والتأويل، لكن قواعده وضوابطه توزعت بين علوم كثيرة في المعرفة الإسلامية.

التأليف في علم أصول التفسير

لقد اهتم علماء المسلمين منذ الزمن الأول بعد وفاة النبي ﷺ بتفسير كتاب الله عز وجل، وبيان مراداته، فظهر كبار المفسرين وأئمتهم زمن الخلفاء الراشدين والصحابة الكبار، ثم تلتهم طائفة من علماء التابعين وتابعي التابعين، ثم توالت الأجيال في تفسير كتاب الله عز وجل وبيان أحكامه وتشريعاته وعقائده وفوائده ومعانيه وقيمه الأخلاقية، إنها حركة البحث عن المعنى لتمام الفهم وتقويم العمل والسلوك والفكر والاعتقاد، وبسبب انشغال هؤلاء بالبحث عن المعاني والدلالات والفوائد والأحكام والتشريعات، لم يعيروا انتباها لسؤال المنهج في استخراج المعاني من الكتاب العزيز، وإن اهتموا بذلك لم يفعلوا إلا عرضا على هامش تفسيرهم وفي مقدمات تفاسيرهم، فشغل القوم كان بيان المراد من العبارة والتفقه فيها، ولم يشغلهم سؤال كيف التفسير وما طرق التأويل؟ ولم يخصوه بالبحث النظري المحض، لكن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا يحتكمون لقواعد منهجية وضوابط إجرائية ومبادئ تأويلية في تفسيراتهم، منها اللغوي والمنطقي والفقهي والأصولي والبلاغي، والنظر في تفسيرات أئمة التفسير وتفاسير علماء الأمة قديما وحديثا تظهر أنه كان للقوم قانون تفسيري، لكن الاهتمام به بداية تاريخ المعرفة الإسلامية كان عزيزا، ثم تتالت في المائة الثانية والثالثة من الهجرة مؤلفات أو أجزاء مؤلفات أو مقدمات مؤلفات تفسيرية أو فقهية اهتمت بهذا الجانب المغفل بداية التأليف في علم التفسير، ويمكن ذكر بعض من اهتم بأصول التفسير و قواعد قانون التأويل فيما يلي:

1. محمد بن إدريس الشافعي، الذي جاءت رسالته تأسيسا أوليا لقوانين التفسير وقواعد التأويل وقوانين الاستنباط ووسائل الاستدلال، وقد عد الكثير رسالته رسالة في أصول الفقه، ولكنه بهذا الصنيع أسس لقانون عام للتفسير، وما أصول الفقه إلا أصول تفسير وقواعد بيان لضرب من المعاني القرآنية اختص ببيان الأحكام الشرعية.

2. نجم الدين الطوفي في كتابه "الإكسير في علم التفسير". حيث يقول: "إنه لم يزل يتلجلج في صدري إشكال علم التفسير وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أجد أحدا منهم كشفه في ما ألفه ولا نحاه في ما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيق الناكبة عن جمر الطريق لوضع قانون يعول عليه ويصار في هذا الفن إليه"[1].

3. شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته المشهورة "مقدمة في أصول التفسير" التي سعى فيها لتمييز وبيان قواعد ضبط التفسير ومبادئ الفهم السليم الصحيح للنص الشرعي، بعد أن استشرى داء التأويل الفاسد وتحريف الفهم، واختلط الحابل بالنابل في كتب التفسير، فكانت رسالته محاولة لضبط الفهم وتمييز الأقوال ونقدها والترجيح بينها، فقال: "فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق والباطل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل"[2].

والملاحظ أن الكثير مما قيل وكتب في قوانين التفسير وأصول التأويل للقرآن الكريم لم يكن تحت هذا العنوان وإنما جاءت هذه القواعد مبثوثة في كتب اللغة والبلاغة والأصول ومقدمات كتب التفسير، وذلك لأن هذا العلم توزع وانتشر بين الفنون، كما أن الكثير من الكتب المعاصرة هي استنساخ لما ذكر عند السابقين ولم تأت بجديد إلا ما كان من إبداع في صناعة العناوين الجديدة لمباحث وموضوعات قديمة في علوم القرآن، والتفنن في صياغتها.

---

1 - نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص 27.

2 - ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص 15.

الأسس المنهجية لعلم التفسير وأصوله

أول ما ينظر فيه في أصول التفسير هو معرفة مبادئ علم التفسير واسسه المنهجية، ومن المعلوم أن مبادئ العلوم عشرة، وجعلها المعاصرون أقل من ذلك، والمقصود من بيانها عند العلماء إظهار الخصائص المنهجية والمميزات العلمية التي تتميز بها العلوم بعضها عن البعض الآخر، وإبراز الفروق الدقيقة بين وظائف العلوم ومطالبها ومناهجها وأدواتها، وهذا يمهد السبل لطالب العلم سداد الخوض في العلوم وحسن المأخذ في الطلب وإدراك الحدود الفاصلة بين الفنون المختلفة، والزلل في ذلك سبب لسوء الفهم وخلط المدارك والخطأ في المعارف، وقد نظمها بعض العلماء في نظوم مختلفة، أرقها وأبهاها قول أبي العباس المقري:

ومـــــن رام فنــــا فليقــــــدم أولا	علمـــا بحـــده وموضـــوعٍ تـــلا
وواضـــعٍ ونســـبةٍ ومـــا اســـتمدْ	منـــه وفضـــلِه وحكـــمٍ يعتمـــد
اســـم ومـــا أفـــاد والمســـائلْ	فتلـــك عشـــر للمنـــى وســـائل
وبعضـهم منهـا على الـبعض اقتصـر	ومـن يكـن يـدري جميعَهـا انتصـر

وسنقتصر من هذه المبادئ العشرة على أهمها، وهي تلك التي تبين حقيقة العلم، وأهمها الحد أو التعريف وهو الذي يضم جل خصائص المحدود، وسنعتمد في ذلك ذكر الخصائص ودرء الفروق بين التفسير وما يختلط به من مصطلحات كالتأويل، مع بيان الموضوع ومقصد التفسير.

1- حد التفسير وتعريفه:

التفسير لغة هو الإيضاح والبيان والإبانة عن الخفي من الشيء ماديا كان أو معنويا، يقول الله عز وجل: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾، والتفسير هو صيغة دالة على المبالغة في الفسر وكشف المغطى.

أما في اصطلاح العلماء فهو تعبير عن ذلك الفعل البشري الذي يروم بيان وتبين العبارة القرآنية وفهم مراد الله عز وجل فيها، وقد اختص ذلك بالقرآن الكريم لغلبة تفسيره على تفسير غيره من الكلام، أما الحقيقة فالتفسير في معناه العام هو السعي لفهم الكلام وإدراك مراد الخطاب، قرآنا كان أو حديثا أو كلام بشر، لكن كثرة الاستعمال والتداول بهذا المصطلح إشارة إلى بيان كلام الله جعل فعل التفسير يختص بالقرآن الكريم وبيان مراداته، فغلب المعنى الخاص على المعنى العام، كما هو الشأن في الكثير من ألفاظ المعاجم.

2- موضوع علم التفسير وبيان الفرق بين الفعل والعلم فيه:

هنا لا بد من التمييز بين التفسير وعلم التفسير، فالأول دال على فعل الإنسان في الفهم والتبين والتبيين للمعاني القرآنية، فيكون موضوعه هو المعنى القرآني والسعي للظفر به، أي إن موضوعه الأساس هو فهم المعاني القرآنية ووسائل وسبل ذلك، أما علم التفسير فهو ذلك النظام المنهجي المكون من ضوابط ومبادئ وقواعد وعلوم ومقومات منهجية تحقق فعل الفهم وتساعد عليه، وبهذا يدخل فيه كل ما يحقق الفهم للقرآن من علوم وفنون شرعية ومبادئ لغوية وأساليب بلاغية وقوانين منطقية استدلالية وأوليات عقلية وكليات شرعية.

يقول الزركشي رحمه الله تعالى في بيان حقيقة علم التفسير وحده: هو "علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها ﴿يعني أسباب النزول والقصص﴾، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها، وزاد فيها قوم: علم حلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، وهذا الذي منع فيه القول بالرأي"[1]، وكل ذلك مما يساعد على الفهم ويسدده ويبرز حقيقة المعاني ولب المراد.

1 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج.2، ص.148 - 149.

إن علم التفسير إبحار في بحر علوم عدة يستلزمها فعل البيان والفهم للقرآن الكريم، ومنها العلوم القريبة الضرورية ومنها الملحقة المستلزمة، يقول أبو حيان: "التفسير علم يُبْحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية، والتركيبية، ومعانيها التي تُحْمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك".

وفعل التفسير إظهار وإفهام وبيان، وذلك لا يكون إلا بمبين ونص يراد بيانه، وهذا النص هو الواسطة بين الشارع المبين والمفسر المتبين، ولهذا اعتبر بعض العلماء التفسير بمثابة نظر الطبيب في عينة ماء المريض بغية التعرف على مرضه[1]، يقول الزركشي رحمه الله: "وأما التفسير في اللغة، فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف وأصله في اللغة من التفسرة، وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض، فكذلك المفسر، يكشف شأن الآية وقصصها ومعناها، والسبب الذي أنزلت فيه، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به"[2]، ويقول: "هو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ".

إن علم التفسير علم يروم فهم العبارة القرآنية وتجلية معاني الكتاب العزيز والظفر بمرادات الشارع الحكيم فيه، وهذا كله لا بد له من كيفية وقانون وأساليب وضوابط، وهو الأمر الذي تصدى له بعض علماء التفسير تنظيرا وتطبيقا، التنظير للعدة المنهجية في علم أصول التفسير، والتطبيق في كتب التفسير وموسوعاته، وفي ذلك يقول نجم الدين الطوفي رحمه الله: "إنه لم يزل يتلجلج في صدري إشكال علم التفسير وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أجد أحدا منهم كشفه في ما ألفه ولا نحاه في ما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيق الناكبة عن جمر الطريق لوضع

1 - والتفسير في اللغة من التفسرة وهي عينة البول المنظور فيه للتعرف على طبيعة المرض.

2 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج.2، ص.147.

قانون يعول عليه ويصار في هذا الفن إليه"[1]، ومنه يمكن القول إن علم التفسير هو علم فهم وإدراك مراد كلام الله عز وجل في كتابه الحكيم، أو هو طريق استخراج المعاني القرآنية، أما علم أصول التفسير فهو قانون ذلك، أو قانون فهم القرآن الكريم، بتحديد المصادر وضبط القواعد والمبادئ المساعدة على تفسير وفهم آياته.

وهكذا يتوزع موضوع علم أصول التفسير بين مبحثين أساسيين:

1. نظر وتدقيق في أصول ومصادر فعل التفسير للقرآن الكريم.

2. نظر وتدقيق في ضوابط ومبادئ وقواعد الانتقال من المباني إلى المعاني في تفسير القرآن الكريم.

1 - نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.27.

تدافع التفسير والتأويل في الاصطلاح

من القضايا التي تستدعي النظر في أصول التفسير ذلك التداخل الحاصل بين التفسير والتأويل، حيث يعد درء التداخل بين المصطلحين أمرا لازما لتستوي الرؤية عند من أراد فهم قانون التفسير وقواعده، ويعتبر هذا التدافع من القضايا التي شغلت المفسرين والعلماء والمهتمين بالدراسات القرآنية وعلوم القرآن قديما وحديثا، فالتفسير فعل الفهم للعبارة والتأويل سعي للنفاذ للب العبارة وكنهها ومعانيها الخفية، ولا تأويل من غير تفسير، ولا فهم للخفي دون فهم الجلي من القول، ولا تأويل في المجاز دون معرفة للحقيقة، ولا تأويل في المفهوم دون إدراك للمنطوق، ولا تأويل للأحكام دون معرفة لأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأوجه القراءات وغير ذلك من مستلزمات فهم العبارة في منطوقها ليستقيم بذلك فهم إشاراتها ولوازمها الدلالية ومدلولاتها الشرعية.

وقد عرف التأويل عند أهل اللغة بأنه إرجاع الشيء إلى أصله أو النظر في مآله، وذلك مستخرج من معاني المادة اللغوية "أول" الدالة على أصل الشيء ومصدره وكذا مصيره وغايته، فنقول: أول الشيء مصدره، وكذا مآل الشي مصيره، فيكون الفعل آل دال على الرجوع للأصل وكذا بلوغ المصير.

أما في الاصطلاح فدل التأويل على البيان والكشف للخفي من المعاني، وذلك ما أشار له القرآن الكريم في وصف تتبع حقيقة المتشابه من القرآن الكريم وهو خفي في معناه والمراد به، وجعل إدراك ذلك مقتصرا على العلم الإلهي في وجه من وجهي الفهم للآية حسب موضع الوقف فيها، وأدرج فيه الراسخين في العلم في وجه آخر من فهم قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ".

ونسوق هنا أهم الأنظار للتداخل الاصطلاحي والمعنوي بين التفسير والتأويل عند العلماء:

- التأويل بمعنى التفسير، ومن ذلك قول مجاهد: "إن العلماء يلهمون تاويله"، وكذلك قول الطبري: "القول في تأويل قوله تعالى"، وقوله: "واختلف أهل التأويل في هذه الآية"، وكل العبارات يُقصَد بها التفسير في لفظ التأويل.

- التفسير أظهر من التأويل، فالأول بيان مدلول اللفظ بما يتبادر من اللفظ، والثاني بيان المدلول بغير المتبادر من اللفظ لدليل، حيث الانتقال من المنطوق إلى المفهوم ومن النص إلى الظاهر لدليل يعتمده المؤول في تأويله، فيكون الاقتصار على الأول تفسيرا والانتقال للثاني تأويلا.

- التفسير يفيد القطع بأن مراد الله هو كذا، بينما التأويل هو ترجيح أحد المحتملات من غير قطع، وهذا ما يعمل في الظني والقطعي من الدلالة حيث يدل فعل كشف المعاني القطعية على التفسير وفعل البحث عن المعاني الظنية تأويلا.

- التفسير هو بيان العبارة القرآنية عن طريق الرواية والأثر، بينما التأويل بيانها عن طريق الدراية، بإعمال النظر والرأي.

- التفسير هو بيان ما يستفاد من معان في دلالة العبارة، بينما التأويل هو بيان ما يستفاد من معان في دلالة الإشارة.

- التفسير هو بيان المعاني التي تسعف بها علوم القرآن المتوسل بها لذلك لغة وبلاغة ونسخا ومحكما وقراءة وغيرها من علوم الآلة، بينما التأويل هو بيان المعاني العرفانية الإشارية غير المنضبطة لقواعد اللغة وأصول البيان، وفي ذلك يقول الألوسي: "كل ما قيل مما ذكرنا ومما لم نذكر مخالف للعرف اليوم، إذ قد تعورف

عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل معان قدسية، ومعارف ربانية، تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك"[1].

وهذا الذي ذكر يدل على الترابط والتداخل الحاصل بين المصطلحين إن تكاملا أو تضمنا وتداخلا، وذلك كما يلي:

1. **التكامل:** حيث التفسير بيان الألفاظ والمعاني الظاهرة التي تسعف بها العبارة القرآنية من غير مشقة المبالغة في النظر، بينما التأويل هو النفاذ لما وراء اللفظ وظاهر العبارة والسعي للوصول لما تتضمنه من معان خفية تتطلب إعمال النظر والمبالغة في ذلك، ويتكامل المقامان في بلوغ تمام المراد.
2. **التضمن والتداخل:** فكل ما ذكر في تعريف المصطلحين تفسير، لأن موضوعه هو كل ما يتعلق بفهم العبارة القرآنية، سواء من ذلك ما يفيده اللفظ وسياقه ومساقه وبيانه ونظمه وظاهره وباطنه وحقيقته ومجازه ومنطوقه ومفهومه وإشارته، وغير ذلك من أسباب البيان وأساليب الخطاب في تبليغ المراد، وهذا ما دعا ابن عباس ﵁ إلى اعتبار كل المقامات السابقة في البيان والتبين لخطاب القرآن اللغوية وغير اللغوية اللفظية وغير اللفظية تفسيرا فيما روي عنه: أنه قال: "التفسير على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، من ادعى علمه فهو كاذب".

ويمكن أن يُدْرَأَ كل ذلك الاختلاف بين المصطلحين بالقول بشمول التفسير لفعل التأويل وإمكان الاستبدال بين اللفظين في التداول اللغوي مجازا، وإن كانت بعض المقامات التخاطبية تقبل أحدهما دون الآخر لوجوب الدقة في اللفظ بحسب ما يتطلبه سياق الكلام، حيث التفسير ما يُكتفى فيه بالدلالة أما التأويل فيُنتقل فيه إلى مستويات ومقامات متقدمة من المعاني: المعنى ومعنى المعنى، أو المعاني الخفية التي لا يتوصل إليها إلا بمزيد نظر وتدقيق وبحث عن خفايا الألفاظ والعبارات، إنها المعاني

1 - محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ص.9.

المباشرة في التفسير، ثم بعد ذلك المعاني غير المباشرة الكامنة في ثنايا النص وفي غير المسموع أو فيما يدل عليه اللفظ إشارة، أو تضمنا، أو لزوما، أو اقتضاء.

وإن كان البعض لا يميز بين التفسير والتأويل في الاستعمال فيطلق اللفظين في موطن واحد وبقصد مشترك، وهذا ما بينه نجم الدين الطوفي رحمه تعالى محاولا توضيح الفرق بين التفسير والتأويل، حيث يقول مجيزا الاستعمال المجازي لأحدهما مكان الآخر: "أما التفسير: فهو تفعيل من فسرت النُّوَرَة إذا نضحت عليها الماء لتنحل أواخرها وينفصل بعضها من بعض، وكأن التفسير يفصل أجزاء معنى المفسر بعضها من بعض؛ حتى يتأتى فهمه، والانتفاع به، كما أن النورة لا يتهيأ الانتفاع بها إلا بتفصيل أجزائها بتفسيرها.

وأما التأويل: فتفعيل أيضا من آل الشيء إلى كذا يؤول أولا إذا صار إليه، وأولته تأويلا إذا صيرته، فسمي تأويل الكلام تأويلا، لأنه بيان ما يئول معناه إليه، ويستقر عليه.

ثم قيل هما مترادفان لأنه يقال هذا تفسير الكلام وتأويله، بمعنى واحد، وقيل التأويل أعم، لجريانه في الكلام وغيره، يقال تأويل الكلام كذا، وتأويل الأمر كذا أي: ما يأولان إليه قال الله تعالى: ﴿وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا في الكلام، وقال في الأمر ونحوه ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي أحسن مآلا وعاقبة وكذا قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: مآل القرآن وعاقبة ما تضمنه من الوعيد.

بخلاف التفسير فإنه يخص الكلام ومدلوله، يقال تفسير الكلام كذا، والقضية كذا، ولهذا قال بعض المفسرين: التفسير: بيان موضوع اللفظ، والتأويل: بيان المراد به، وقوله تعالى: ﴿ولَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، من هذا القبيل، نعم يجوز استعمال أحدهما موضع الآخر مجازا على هذا القول وهو الأظهر، إذ الأصل عدم الترادف عند من يثبته"[1].

1. نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، تحقيق عبد القادر حسين، دار الأوزاعي، 1989م، ص.28-29.

الناظر في كتاب الله بين التفسير والتأويل

إن التفسير لا يكون إلا بعلوم حاصلة متوسل بها، وكل هذه العلوم تعتمد الرواية والنقل عن القدماء ولا مجال فيها للاجتهاد بالرأي سوى ما كان من ترجيح بين الروايات أو محاولة الجمع بينها، مما يجعل دور القارئ محدودا، حيث يبذل جهدا ذهنيا في صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني المتوافقة مع البناء الكلي للنص والمعتمدة على ما ورد من علوم في التفسير، على اعتبار هذا الأخير مرحلة تمهيدية لفعل القراءة التأويلية، حيث الانطلاق من علوم التفسير أولا، ثم المسير لفعل التأويل، والاستناد إلى النص ودلالاته وخصائصه البيانية اللغوية بداية، ثم الانتقال بعد ذلك إلى مدلولاته وخفاياه، دون التنكر لمنطوق النص ومفهومه، وقواعد اللغة وأساليبها، ليكون التأويل معتبرا سالما من أهواء المؤول وزلله، المغرض منه وغير المغرض، ولا يتم ذلك إلا من خلال اكتشاف النص وتجلية مكوناته ومكنوناته وفرد أجزائه المركبة له وفتح آفاقه التأويلية وإمكاناته البيانية.

وهكذا فالقارئ للنص القرآني بناء على آلية التأويل هذه، عليه أن يقف عند حدود علوم القرآن وعلوم اللغة، الأولى من خلال الرواية والثانية من خلال اجتهادات علماء اللغة، وذلك لأن علوم القرآن وطيدة الصلة بهذا النص من حيث تناولها جوانبه المختلفة، وعلم اللغة وما يرتبط به من نحو وبلاغة ﴿بيان ومعاني وبديع﴾ مهم لدرس النص القرآني كنص لغوي لاكتشاف دلالته. ورغم هذه الخطوات تبقى هناك أبعاد دلالية أعمق تحتاج إلى حركة "الذهن" أو "العقل" إزاء النص، بعد استنفاد الأدوات العلمية التفسيرية واللغوية في اكتشاف إمكانيات الدلالة. وهذا الغوص الذهني في أعماق النص هو التأويل، أما الاجتهاد الذي يبتغي استخراج الأحكام الشرعية من النصوص لمسايرة الشرع للواقع، فهو مرحلة بعد التأويل، بل هو جزء من فعل التأويل يسمى بالتأويل الفقهي. والمعروف أنه هناك فسحة للتعدد والاختلاف في هذا الفعل القرائي التشريعي الذي يبتغي استخراج الأحكام للطوارئ والنوازل الفقهية،

بناء على مبدأ أن الاختلاف رحمة للأمة، وهذه الفسحة هي التي يجب أن يتمتع بها التأويل كذلك لإعطاء نص الوحي حيوية والنفاذ لأعماقه وجعله مسايرا للواقع بكل تقلباته وأوضاعه. وذلك لأن "الاجتهاد في تأويل النص لا يختلف في الفقه ومجال الأحكام عنه في أقسام النص الأخرى من حيث أنه يعتمد على حركة "العقل" للنفاذ إلى أعماق النص. وإذا كان الاختلاف في مجال التأويل الفقهي اختلافا من قبيل "الرحمة" والتخفيف عن هذه الأمة، فإن اختلاف "التأويل" في أقسام النص الأخرى يجب النظر إليه من نفس المنظور خاصة إذا اعتمد المؤول على كل أدوات تحليل النص ولم يكن استناده إلى مجرد الهوى أو الرأي الشخصي"[1].

1 - سعيد النكر، نظرية النص أو التعدد المنهجي في قراءة النص القرآني، ص.238-239.

القرآن والبيان

خصائص البيان في خطاب القرآن.

يعتبر القرآن الكريم مدار الأمر كله في الإسلام، فهو قد احتوى الإسلام كله، فهو كتاب شريعة وعقيدة وسلوك وعبادة وأخلاق وأخبار وقيم وأدب ولغة وبلاغة، وإدراك أحكام الله عز وجل التي تعبدنا بها لا يكون إلا من الوحي كتابا وسنة، وإن شروط العدل الإلهي في التكليف لإقامة الحجة على العباد ودرء أسباب الاعتذار هي:

1- فهم الشريعة: وذلك بمخاطبة الله الناس بما يفهمون، ليتحقق الفهم عن الله في خطابه، وهذا يعبر عن أصل من أصول التفسير يمكن صوغه كالآتي: **إلهية المصدروبشرية القراءة**، بمعنى أن القرآن كلام الله، لكن لغته لغة بشرية طبيعية مما يجعل من اللازم أن يكون فعل القراءة بدوره بشريا، ومن حكمة الله عز وجل تحقيقا لمبدأ العدل في التكليف خاطب الناس بلغة عربية فصيحة يفهمونها، ليسهل عليهم بذلك فهم الأوامر والنواهي.

2- القدرة على الفعل التكليفي: بتكليف العباد بما يطيقون فعله، لتحصل لهم القدرة على الفعل المكلف به، ويحاسبون بتركه.

3- العلم بالشرع: بتحقق علم العباد بالتكليف، وما فرض الله عليهم وتعبدهم به من أوامر ونواه وأحكام شرعية، وهذا يستدعي التبليغ وبلوغ الرسالة للمكلف.

وتحقيقا لشرط الفهم عند المكلف جاء القرآن عربيا مبينا، وجعل الله عز وجل لغة الوحي لغة طبيعية بشرية وهياللغة العربية، ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾، وهذا يحيل على أصل آخر من أصول التفسير وهو: **اللغة العربية لغة الوحي**.

ومن الأصول المعتبرة عند أهل التفسير أن: **الخطاب القرآني خطاب مبين**، له صور إعجازية كثيرة أسماها صفة الإعجاز البياني، فهو معجز في نظمه ولفظه ومبناه

ومعناه وجمال أسلوبه وجزالة ألفاظه، فالقرآن الكريم معجزة النبي الكبرى التي تعددت صورها وأوجهها، وأهم إعجاز في القرآن الكريم الإعجاز البياني، ومعلوم أن اللغة وحدها لا تصنع خطابا مبينا، بل لا بد من شروط أدبية وأخرى بنائية تركيبية دلالية أسلوبية مرتبطة بالنظم ودلالات الألفاظ وحسن ترتيبها لتستقيم المعاني، ولهذا كان الخطاب المبين هو الذي توفرت فيه شروط بيانية وأخرى أدبية، حيث البيان هو الإعراب عما في الضمير وهتك الحجاب دون المعنى لكي يهجم السامع على مراد المتكلم ومكنون ضميره ويتمكن من معنى الكلام تمكن المتكلم منه ويستقر في ذهن المتلقي كما هو في ذهن صاحب الخطاب، وهي غاية لا تدرك إلا بشروط هي:

1- حسن اختيار الألفاظ.

2- وحسن استثمارها واستعمالها في الخطاب.

3- ومراعاة السياق في الاستعمال.

إن القرآن الكريم نص مبين وخطاب مفيد بلغ أسمى صور البيان وحسن التأليف بضم الإلف إلى إلفه، وذلك باتساق معانيه وانسجام عباراته وحسن اختيار ألفاظه وتناغم أجزائه وتناسبها، مع مراعاة قواعد النحو والتركيب والدلالة في اللغة العربية، كل ذلك مع إبداع رباني بهيج بلغ أسمى صور التميز في صناعة القول، لا يمكن لبشر بلوغه وإن أدركوا منتهى التمكن من أساليب وقواعد التخاطب والبلاغة والفصاحة والبيان، ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، وهذا يبرز أصلا آخر من أصول التفسير وهو أن: **إعجاز القرآن الكريم البياني يمنع من الإتيان بمثله ولا يمنع من إدراك كنهه.**

إن انبناء القول على قواعد وعلاقات يصنع منه خطابا مبينا مفيدا لمعنى، كما أن استواء النظم لا يكون إلا بانتظام الخطاب وفق قواعد النحو والتركيب والدلالة، مما يصونه من الخلط والاضطراب في التعبير عن المعاني، فليست العبارة هي التي تصنع

المعنى الحسن، وإنما حسن النظم والأدبية، وكلام الحمقى يفتقد المعنى لأنه لا نظام له ولا قواعد تضبطه، رغم أنه ركام من الألفاظ المبعثرة الملفوظة بغير نظام.

وقد اهتم البلاغيون والمتكلمون بإبراز إعجاز القرآن البياني والبلاغي، سعيا لضبط خصائصه التركيبية والدلالية والجمالية وإبراز معالم الحسن البياني فيه، كما اهتم الفقهاء والأصوليون ببلاغة القرآن، بغية التوسل بقواعدها لفهم خطاب التكليف واستخراج الأحكام الشرعية، وجمع ذلك كله وقعد في علوم نسقية منهجية ضمتها البلاغة العربية في مباحثها ﴿المعاني والبيان والبديع﴾ ومباحث اللغة والدلالة عند الأصوليين.

وإن ضبط أساليب البلاغة وقواعد البيان في خطاب القرآن مدخل أساسي لفهم المعاني وتفسير الخطاب القرآني، لأن البناء والتأليف كان بواسطتها وإدراكها يساعد على حسن تأويل وفهم ما جاء بها، كما أن ضبط مبادئ وقواعد تفسير وتأويل الخطاب القرآني يستدعي ضبط مبادئ وقواعد الانبناء في اللسان العربي وأساليب القول فيه ومعهود العرب في التخاطب، ويمكن القول: إن فعل تفسير الخطاب مقابل لفعل إنتاجه، ولا يستوي الأول ويستقيم إلا بإدراك نظام الثاني، ولا يفهم الخطاب إلا بإدراك المؤول لأساليب وقواعد تأليفه ونظمه، ويمكن استخلاص قاعدة أساسية في هذا السياق، وهي: **التقاء التأليف والتأويل، والتبيين والتبين ، في أساليب البيان وقواعد النظم**.

مثال ذلك التأويل والفهم للعبارة المجازية في القرآن الكريم، يستدعي فهم المجاز كقاعدة لغوية وضوابطها وأنواع علاقاتها وقرائنها، ليسهل على المفسر إعمال ذلك لإدراك المراد من العبارات القرآنية التي لم يقصد منها حقيقتها، حيث المجاز في تقعيده البلاغي هو انتقال من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لعلاقة رابطة بين المعنيين ووجود قرينة سياقية داخلية في الخطاب أو خارجية تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، وإدراك هذه الضوابط استقراءً من كلام العرب يساعد على حسن التأويل المجازي، مثل تأويل قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾، وقوله تعالى: ﴿فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض

فأقامه﴾، حيث يمكننا استحضار قواعد وضوابط التعبير المجازي كما حددها أهل البلاغة أن ندرك أن المقصود بالسؤال ليست القرية لكونها بنيانا لا يمكن سؤاله، وإنما المقصود ساكنو الديار بالقرية وهم أهلها، وذلك لعدم إمكان سؤال الجماد وهي القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، ولوجود علاقة حال ومحل بين الإنسان والقرية، فاستدعى ذلك الذهن للانتقال من ظاهر القول وحقيقته إلى باطنه ومجازه، والأمر نفسه في الآية الثانية، حيث لا يمكن للحائط أن يريد ويقصد أن ينقض، لأنه لا إرادة له، وإنما هو تعبير مجازي على تداعيه للسقوط.

والخطاب القرآني قد يخرق أحيانا بعض قواعد وضوابط انبناء الخطاب العربي نحوا وتركيبا ودلالة، وهذا من شأنه إفساد العبارة، لكن ذلك لا يصدق على الخطاب القرآني الذي قد يخرق الكثير من قواعد البيان العربي قصدا لتجويد العبارة وتزيين أسلوبها وتقوية معناها عند المتلقي، فيكون هذا الخرق قمة الجمال في البيان والدلالة في المعنى والإبلاغ للمراد، مثال ذلك قول الله عز وجل: **﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾**، حيث وقع التقديم والتأخير بين الفاعل والمفعول في الجملة، وقد جعل ذلك العبارة أكثر تعبيرا وأقوى دلالة في إبلاغ المراد بالرفع من قيمة العلماء والتبجيل لمقامهم، حيث تقديم الله عز وجل مقاما ورفع وإبراز لفظي لقيمة العلماء، باعتبارهم العارفين الدالين غيرهم على معرفة الله ومعرفة أحكامه، وتظهر قيمة هذا التقديم والتأخير في بيانية الخطاب القرآني إذا ما قمنا بوضع أجزاء العبارة في نظامها المعهود لبدت أقل دلالة وأضعف بيانا.

وقد لا يراعي الخطاب القرآني أحيانا كثيرة سياق القول ومقام التخاطب بشكل مقصود، بغية إبلاغ معان خاصة غير تلك التي يفيدها ظاهر الكلام ومثال خرق سياق القول ومتطلباته في العبارة في قوله تعالى: **﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾**، إذ وردت عبارة التكريم في سياق التهديد، حيث يفهم من السياق أن المقصود غير ذلك، ويجعل القارئ والمفسر يفهم عكس ما يفيده الخطاب ظاهرا، ولهذا فسرت العبارة بأنها استهزاء وسخرية من الله بهؤلاء الذين كانوا يدعون العزة في الحياة الدنيا بكفرهم بالله

وإشراكهم معه غيره، وهذا ابن كثير يقول في تفسير هذه الآية استحضارا لهذا المبدأ التأويلي: وقوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال الضحاك عن ابن عباس: أي لست بعزيز ولا كريم، وقد قال الأموي في مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل فقال: "إن الله تعالى أمرني أن أقول لك ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء. ولقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته، وأنزل ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، هكذا يدرك أن المراد من العبارة ليس ظاهرها وإنما ضدها، وهذا يفهم من:

- السياق الداخلي للخطاب المفيد للتهديد والتهكم والتوبيخ الذي لا يقبل الإطراء، فيفهم التحقير والتصغير والاستهزاء.
- السياق الخارجي الذي تعرفنا به أسباب النزول، والتي تبين لنا المقصود بالخطاب، وكيف أن فيه تحقير وتصغير له.

بيانية الخطاب القرآني وحقيقة البيان

يقول الله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾، ويقول تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ويقول عز من قائل: ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾.

إنها شواهد قرآنية على بيانية القرآن الكريم وكونه خطابا مبينا، شكل ببيانه البيان نفسه في أسمى مقاماته وأجلى صوره، وهذا يدعونا لصياغة أصل آخر من أصول التفسير، وهو: **"القرآن الكريم بيان".**

فما حقيقة البيان لغة واصطلاحا؟ وما هي دلالاته في تاريخ المعرفة الإسلامية؟

لقد قدم الإمام الشافعي رحمه الله في رسالته نظرية متكاملة حول البيان في الخطاب الشرعي عامة، وذلك في إطار سعيه لوضع قوانين لتفسير الخطاب القرآني والوقوف على خصائصه البيانية اللغوية والأدبية، مهتما كذلك بالمضامين التشريعية وبكيفية استخلاصها واستنباطها من النص الشرعي، معتبرا القرآن الكريم مصدرا للأحكام الشرعية فيه الإجابات الكافية للنوازل الحالة في واقع الناس، وفيه الحقائق الإيمانية والقيم الأخلاقية والأخبار التاريخية...، في أسلوب شيق وبيان رفيع. والبيان عند الشافعي: "إسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة، أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن بعضها أشد تأكيد بيان من بعض، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب"[1].

إن البيان في اللغة من بان أي انفصل وهو من البين أي الفرق، وهو في التخاطب: الكشف والإيضاح والإظهار والإفهام، ومعناه هنا لا ينفصل عن أصله اللغوي، يقول

1. الشافعي، الرسالة، ص.20. 21.

الجصاص في أصوله مبينا ذلك: "أَنَّ الْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ الْمَعْنَى وَإِيضَاحُهُ مُنْفَصِلًا مِمَّا يَلْتَبِسُ بِهِ"، وهو دلالة على كل ما كشف عن معنى الكلام وأظهره.

ونجد للبيان معان اصطلاحية كثيرة تختلف باختلاف مقامات وسياقات الاستعمال:

1. فالبيان قد يطلق ويراد به **الفعل البياني الإنساني**، أي ذلك الجهد المبذول من طرف هذا الكائن المبين للإبانة عما يوجد في الضمير، أو تبليغ فكرته والتعبير عن مراده بواسطة وسيلة تبليغية تواصلية، توصل مقصوده للمخاطب، وهنا نقول البيان أو التبيين.
2. وقد يراد بالبيان **صفة التبيين والإبانة** عما في الضمير وإظهاره وبيان خفائه، وهو صفة خص بها الله تعالى الإنسان، من ضمن ما خصه به من وسائل يستطيع من خلالها أداء واجب الاستخلاف في الكون، وهي نعمة تظهر تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات وتمكنه من إعمار الأرض واستثمار الخيرات المسخرة له، يقول الله عز وجل ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾، ويقال عند الحكماء أن الإنسان كائن لغوي وهو في الآن نفسه كائن بياني مبين.
3. ومن هنا يعتبر البيان **ظاهرة إنسانية** خاصة بالإنسان، إلى جانب خصائص إنسانية أخرى اجتماعية وثقافية وفكرية ومعرفية، والظواهر في تاريخ الإنسان كانت موضوع دراسة وبحث، وهذا ما نلمسه كذلك في ظاهرة البيان، التي اهتم بها الحكماء والعلماء في مختلف الأزمان قديما وحديثا: معجما وتركيبا ونحوا ودلالة ومنطقا وأدبا.
4. وقد يكون البيان **صفة للخطاب**، إذ البيان سمة للحسن في الخطاب المبين، وهذا المقام الرفيع في الكشف عن المراد في القول يسمى بيانا، يقول الله عز وجل: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾، واللسان يقصد به المقالة والكلمة والقصيدة، يقال لسان فلان أي

كتابه أو قصيدته أو كلمته، وقال بعضهم: "ندمت على لسان السوء فات مني"، وقال الآخر:

لسانُ السوء تهديها إلينا وحِنْتَ وما حسبتك أن تحينا

5. ويقصد به كذلك خطابُ الوحي، والقرآنُ خاصة، وهو الذي حاز أعلى مراتب البيان، واستحق صفة البيان في أبهى حللها وأحسن صورها، ﴿هذا بيان للناس﴾.

6. ويطلق البيان على جملة مكونات النظام التخاطبي الإنساني، وعلى المنظومة التخاطبية الإنسانية، حيث البيان والإبانة عندما نتحدث عن المتكلم باعتباره مبيِّنًا ومبينا أثناء عملية إنتاج الخطاب، وكذا التَّبَيُّنُ عند الحديث عن مقام المستمع أثناء تفسيره للخطاب.

7. والبيان لا بد له من خطاب يتجسد فيه، والخطاب لا يمكن الإمساك به إلا من خلال نص مكتوب، وهنا يكون صفة للنص كذلك، إذ لا بيان إلا بوجود نص، باعتباره منطلق البيان ومجال تجليه، ووسيلة إظهار الخطاب وبسطه، وهذا سر تسمية القرآن الكريم بالبيان، فالنص الذي أنيطت به مهمة التبيين للدين، سماه الله عز وجل بيانا، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وهذه التسمية على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز، فهو كذلك نص بياني، تنطبق عليه صفة البيان ويستحق هذا الإسم.

8. ويطلق البيان ويراد به فعل تحسين وتجويد الكلام، فكانت البلاغة وأساليبها وسيلةٌ أساسية لتحقيق صفة البيان ومراد التبيين، وهذا أبو هلال العسكري يقول في تعريفها: **"البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه، كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"**[1]، حيث اشترط حسن العرض

1- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين، تحقيق الأستاذين علي البجاوي ومحمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1952م، ص10.

وجمال الصورة كضوابط لبلاغة المتكلم ليتم إبلاغ المعنى للمخاطب مع اختيار أحسن الألفاظ الموفية بالغرض وهذه الصفات عينها خصائص البيان.

9. البيان دلالة على الفهم والإفهام، فلا بيان إلا بمعنى حال في النفس يرغب المتكلم إحلاله في قلب السامع، مزاوجا في ذلك بين اللفظ والمعنى، بين حسن المعنى وجمال العبارة، ولذلك يمكن القول: **"إن البيان هو الإعراب عما في الذهن بالمنطق الفصيح"**[1]، ويحتمل هذا التعريف أن يكون البيان هو عين الخطاب وأن يكون صفة وخاصية للخطاب المبين.

خلاصات في تحديد معنى البيان:

1. البيان خاصية إنسانية وهبة ربانية.
2. البيان هو عين الخطاب والكلام: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾، أي الكلام والخطاب، و"آتيناه الحكمة وفصل الخطاب".
3. كما يأتي صفة للكلام والخطاب المبين: ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾، أي مفيد معبر.
4. كما يفيد كيفية الإبلاغ والإفهام والإعراب عما في الضمير: ﴿علمه البيان﴾، أي كيفية بيان وإبلاغ ما في نفسه وضميره صورة ومضمونا وعلاقات ومنطقا.
5. ويفيد كل ما يهتك الحجاب عن المعنى الكامن في الضمير فيجعله واضحا في ذهن المتلقي وضوحه في ذهن المتكلم بصورة مقبولة ومعرض حسن.
6. القصد من البيان الإفهام.
7. قد يستوعب البيان كل وسائل الإفهام لفظية كانت أو غير لفظية: كلاما، خطا، إشارة، صمتا، حركة، ....

1- سعيد النكر، المنهجية الأصولية والبحث البلاغي، ص.43-44.

وهذا بيان جامع للجاحظ جمع فيه بيان البيان وصنوفه، حيث يقول: " والبيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمير، حتّى يُفْضِيَ السّامعُ إلى حقيقته، ويَهجُم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ، ومن أيِّ جنسٍ كان الدّليل؛ لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائل والسّامع، إنَّما هو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ وأوضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع، ثم اعلم – حفِظَكَ اللّه – أنّ حُكْمَ المعاني خلافُ حُكمِ الألفاظ؛ لأنْ المعانِيَ مبسوطةٌ إلى غير غاية، وممتدّةٌ إلى غير نهاية، وأسماءَ المعاني مقصورةٌ معدودة، ومحصَّلةٌ محدودة، وجميعُ أصنافِ الدلاّلات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقُص ولا تَزِيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخَطّ، ثمَّ الحالُ التي تسمّى نِصْبةً، والنِّصبة هي الحال الدّالةُ، التي تقوم مقامَ تلك الأصنافِ، ولا تقصِّرُ عن تلك الدّلالات ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها".

هل يحتاج البيان إلى بيان
وكيف أسس علماء الإسلام لقانون فهم القرآن؟

وهي من المسائل التي شغلت الفكر العلمي في المعرفة الإسلامية، وتراوحت الآراء بين قائل بعدم حاجة القرآن لبيان، فهو خطاب مبين لا يحتاج لبيان ولا تأويل إنسان، وهناك من رأى أن هذا الخطاب رغم اتصافه بصفة البيان فهو يحتاج إلى إعمال آلة التبين فيه وبه، لتتضح معانيه الخفية وتتجلى أوجه الدلالة فيه، فبيانيته واتضاح معانيه لا تعني بساطة العبارة وابتذال المعاني، بل فيه الإجمال والمشكل والمتشابه مما يستدعي بيانه، خاصة وأنه بني باللغة العربية المعروفة باتساع معانيها وانفتاح دلالاتها، مما يجعل النص العربي عامة والنص القرآني بشكل خاص حمال أوجه ينطق به الرجال من خلال تأويلاتهم، أي إن تعدد المعاني وانفتاح الدلالات يتم توجيهه وتحديده من خلال الفعل التفسيري والاجتهاد التأويلي، فالألفاظ العربية التي بني بها الخطاب العربي تتفاوت من حيث الوضوح والخفاء، الشيء الذي دفع العلماء للحديث عن المحكم والنص والمتشابه والظاهر ودلالة الإشارة وباقي صور الدلالات اللفظية المندرجة تحت قسمي المنطوق والمفهوم. وهذا الشافعي رحمه الله يبين سعة اللسان العربي وكثره وجوهه بقوله: "وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان عربي دون غيره لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه"، وكلام الإمام الشافعي نستنبط منه خاصية مهمة من خصائص لغة القرآن، وهي: **سعة اللسان العربي و اتساع معانيه**، فألفاظه تسع الكثير من المعاني، مما يستدعي الإلمام بقواعد اللغة والنحو والبلاغة، وهو ما بينه الجويني رحمه الله في قوله: "أما الألفاظ فلا بد من الاعتناء بها فإن الشريعة عربية ولن يستكمل المرء خلال الاستقلال بالنظر في الشرع ما لم يكن ريانا من النحو واللغة".

إن القرآن الكريم رغم أنه بيان فهو محتاج إلى بيان، وهذا أصل آخر يفيد أن الخطاب القرآني رغم بيانيته وإعجازه البياني، فهو محتاج للتبين البشري بناء على

أسئلة الإنسان التي يستبطنها، ونوازل عصوره التي أنزل القرآن الكريم تشريعا لها، وآفاق التأويل المتباينة التي سترافق مستجدات الأزمنة اللاحقة لزمن تنزل الوحي، وفعل الفهم للدلالات القرآنية والاستنباط للمدلولات التشريعية والتنزيل للمرادات الربانية يستدعي لا محالة فعلا تأويليا رصينا متسلحا بالعدة المنهجية العلمية والدقيقة، ويمكن إجمال دواعي حاجة الخطاب المبين إلى بيان فيما يلي:

1- اتساع اللسان العربي وتعدد معانيه ودلالاته.

2- تعدد أوجه الدلالة في الخطاب العربي عامة وفي الخطاب القرآني بشكل خاص.

3- كلية الخطاب وعموم المعاني: الكليات الشرعية وجوامع الكلم.

4- إجمال العبارة في خطاب الوحي.

5- الحجب في خطاب القرآن حيث يخفي أكثر مما يظهر.

6- غنى المعاني والانفتاح الدلالي في الخطاب القرآني(1).

7- اختلاف آفاق التأويل مع اختلاف أسئلة العصور ومناهج التأويل.

8- بعد الناس عن فصاحة اللسان العربي باتساع الأقطار وتباعد الأزمان وقلة ذوي اللسان العربي سليقة مع التوسع الجغرافي والثقافي للحضارة الإسلامية.

9- شمولية الخطاب القرآني وتعدد أنواع البيان فيه فهناك:

- البيان العقدي
- البيان الأخلاقي
- البيان التربوي الإرشادي
- البيان التاريخي

1 - انظر خاصية الانفتاح الدلالي وخصائص بيانية أخرى في كتابنا:

سعيد النكر، سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النص القرآني، دار السلام، مصر، 2013م، ص.83.

- البيان التشريعي

إن الضرورة الثقافية واللسانية والدينية استدعت بيان البيان وتفسير الخطاب المبين، بالبيان النبوي أو البشري، حيث يتصدى العلماء المهرة لفعل التبين والتفسير للخطاب المبين لفهمه وإفهامه، واستخراج مراداته، وقد يكون ذلك بالاحتكام لقوانين اللسان العربي وأصل التواضع في المعجم العربي، أو بالنقل والأثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم عبر أئمة التفسير، أو بالرأي وإعمال العقل، أو بالمعاني العرفانية المنكشفة لمن رقَّت طباعه وعلت مقاماته في القرب من الرحمن فانفتح له من المعاني ما لم ينفتح لغيره.

وحاجة القرآن المبين للبيان لا تعني عدم قدرة هذا الخطاب على الإبانة، فهي صفة لا تليق في حق الله تعالى، وإنما السر في بلاغة الخطاب القرآني وأسراره البيانية، وكذا في صفات خاصة بالمتلقين للوحي، وفي ذلك يقول الطوفي رحمه الله: "في بيان احتياج بعض قراء القرآن إلى التفسير والتأويل: اعلم أن الكلام إما أن يكون متضح اللفظ والمعنى، أو لا.

- فالأول لا حاجة له إلى تفسير، بل هو بين بنفسه، لاتضاح لفظه، واشتهاره وضعًا أو عرفًا، ونصوصيته في معناه نحو: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، فإن لفظ الإنزال والسماء والماء والإسقاء معروفة مشهورة، ونصوصيتها في مدلولاتها غير منكورة.

- أما الثاني وهو عدم الإيضاح في لفظه ومعناه جميعا، لاشتراك نحو: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ للطهر والحيض، وعسعس الليل لأقبل وأدبر، ﴿وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، لاحتماله النهي والخبر، أو لظهور تشبيه، كآيات الصفات نحو: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ . أو لغرابة في اللفظ نحو: ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، ﴿ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾، ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾، وهو المحتاج إلى التفسير.

فإن قلت ما فائدة ورود هذه الأقسام التي يحتاج بعض قرائها إلى التفسير في القرآن، وهو إنما ترك لتكليف الخلق للعمل بمضمونه، وقد كان إنزاله جميعه متضحا عريا عن الإشكال والإجمال -كالقسم الأول-، أحرى أن تبادر الأفهام إلى معناه، فتبادر القلوب والأبدان إلى امتثال مقتضاه؟. قلت: فائدته من وجوه:

- أحدها: أن القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم، وهي مشتملة على القسمين: أعني المتضح وغيره، وكلاهما عندهم بليغ حسن في موضعه كما سيأتي في القسم الثالث إن شاء الله تعالى، فلو خلا القرآن من أحدهما لكان مقصرا عن رتبة اللغة. فلا يصلح إذًا للإعجاز.

- الثاني: أنه تعالى أنزل المتضح، ليتعبد المكلفون بالعمل به بادئ الرأي: أعني على الفور من غير احتياج إلى نظر، وأنزل غير المتضح الذي يمكن التوصل إلى معرفة معناه بالنظر، ليتعبد العلماء بالاجتهاد في استخراج معناه، والمقلدون لهم بتقليدهم فيه، وتلقيهم له عنهم بالقبول، فيعظم أجر الفريقين ما دام تعبدهم به، وأنزل ما استند بتأويله كالمتشابه، ليتعبد الجميع بالإيمان، ولهذا أثنى على المؤمنين به بقوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ على ما قررناه في كتاب «بغية السائل»، وحينئذ لا تنافي بين هذا وبين قولك: إنما أنزل لتكليف الخلق بالعمل بمضمونه، لأن العمل بمضمون المفهوم منه، والإيمان بغير المفهوم منه تعبدان صحيحان يحصل بينهما تمييز الطاعة من العصيان والكفر من الإيمان.

- الثالث: لعله تعالى جعل إنزال هذا القسم شَرَكًا من أشراك الضلال يوقع فيه من يعترض عليه به مثل هذا السائل الذي وظيفته الانقياد والتسليم لأمر مولاه الذي لا يسأل عما يفعل، وقد وقع ذلك منه بإخباره الصادق عن نفسه حيث يقول: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ فجعل منه على المستضعفين سببا لإضلال المعترضين المكذبين، وكذلك قوله تعالى:﴿ "ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم﴾ .

- الرابع: لو فرضنا أن ليس في إنزاله حكمة تظهر لنا، لكن يجب حمله على حكمة خفيت عنا لقيام الدليل على حكمته تعالى، وأنه لا يفعل شيئا عبثا لا لحكمة"[1].

وإن حركة التفسير والبيان للقرآن الكريم انطلقت منذ انقطاع الوحي من السماء بوفاة النبي ﷺ، مع الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة، فها هو الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحتكم لكتاب الله عز وجل في مسألة أقل مدة الحمل دارئا ودافعا تهمة الزنا عن امرأة ولدت في السادس من حملها وأرادوا إقامة الحد عليها فحاججهم وقال لهم ان الأمر لا يستدعي إقامة الحد، واستدل بآيتين كريمتين معملا النظر في النصوص ومقابلا بينها ومفسرا للقول محتجا على عمر رضي الله عنه عندما قضى بحد المرأة حد الزنا، والتي جاءت بمولود عند الشهر السادس من زواجها، فنظر نظرا متفحصا في كتاب الله وجاءهم بالآيتين: الأولى قول الله عز وجل: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ وقوله تعالى:﴿ "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ .

فطرح الأربع والعشرين من الثلاثين، فكان أقل مدة الحمل ستة أشهر، فدفع الحد عن المرأة، وترك حكما فقهيا عقليا تشريعيا للأمة انطلاقا من فعل تفسيري تأويلي لآي القرآن الكريم، وأسس لمنهج استدلالي عقلي في فقه النصوص من الوحي.

وقد تراوحت مدارس التفسير واتجاهاته عبر تاريخ المعرفة الإسلامية بين ثلاث:

1. التفسير بالنقل والأثر.
2. التفسير بالرأي.
3. التفسير العرفاني الإشاري.

وهذا لم يمنع من وجود تداخل بين هذه الاتجاهات في المنهج والطريقة، دون أن نغفل غلبة الاهتمام بالجوانب اللغوية والبلاغية عند الكثير من المفسرين.

1 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.33-35.

اللغة العربية لغة القرآن
وسبيل البيان ومدخل التبين

القرآن الكريم عربي اللغة بشري الفهم والقراءة[1].

إنه مما ينبغي الاعتراف به وعدم التنكر له، لأنه واضح وضوحا كاملا: كون القرآن الكريم إلهي المصدر بلا خلاف ولاشك، فهو كلام الله عز وجل المعجز، الذي أنزله تعالى على نبيه عن طريق الملك جبريل عليه السلام، والخطاب فيه موجه إلى النبي ﷺ المتلقي الأول للوحي، وموجه للناس جميعا سواء منهم المعاصرين له، أو الذين جاؤوا بعدهم ممن بلغهم أمر الدين، والقرآن الكريم منزل باللغة العربية: لغة نزول الوحي، فهو إذا ذو طبيعة لغوية وبيانية ولذلك لا ينفك إعجاز القرآن عن لغة القرآن، أي عن اللغة العربية، فهو معجزتها. واستعادة هذا الكلام ومحاولة السير على نهجه واعتماده كنظام حياة عند متلقيه المؤمنين به، وكذا التعرف على قيمته البيانية وخصائصه الإعجازية من طرف المختبرين له والمسائلين له بغية تحديد موقف منه وتبنيه في حياتهم بالنسبة للمتعرفين الجدد عليه، كل هذا يتطلب قراءة من طرفهم، ليس قراءة لفظية سطحية، وإنما قراءة تأويلية متفحصة. ومن هنا يكون مصدر القرآن إلهيا وقراءته بشرية محضة، ولا مكان للتناقض هنا كما يتوهم البعض، والرسول ﷺ كلامه وحي يجيء في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، وهو واسطة تربط بين هذا الكتاب المنزل وبين عقول الناس لتقريب وتسهيل عملية الفهم عليهم، ومساعدتهم على قراءة القرآن الكريم دون زيغ أو ظلال، وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجد ما نعزز به كلامنا هنا وهو كالآتي:

فكون كلام الله عز وجل موجه لمتلق بشري، نجد ذلك مبثوثا في:

1- محور مقتطف من كتابنا سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النص القرآني، ص.76-78، مع التصرف في ذلك بحسب ما يناسب المقام.

- قول الله عز وجل: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾.

- وقوله تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾.

وحول اختيار اللغة العربية لغة القرآن الكريم آيات عدة نذكر منها ونكتفي بما يلي:

- يقول الله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾

- ويقول الله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾

- ويقول كذلك: ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾

- ويقول عز من قائل:﴿ "وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين﴾.

وهكذا يصرح القرآن الكريم بأنه: "وحي نزل بلغة الإنسان العربي وعلى مقتضى أساليبها في التخاطب وإن كان الخطاب فيه موجَّها إلى الإنسان عامة؛ وعلى هذا، يكون الوحي قد اتخذ في شكل تبليغه وتحققه اللساني وضعا إنسانيا، وخرج عن وضعه الإلهي الذي لا تكيِّفه ولا تحدُّه لغة"[1]، وذلك أن اللغة حسب تعريفاتها المعاصرة هي نظام من الرموز والعلامات المرتبطة بينها وفق علاقات تركيبية ودلالية ونحوية، التي تفتح بتعدد احتمالاتها التركيبية مجالا واسعا من الدلالات والمعاني، وتضع أرضية للانفتاح والاتساع الدلالي، وكل هذه المعاني والدلالات لا يمكن اكتشافها إلا عن طريق فعل القراءة، فالنص اللغوي إذن لا يكتسب وجوده، ولا ينتقل إلى أفهام الناس وأذهانهم، ولا يتحقق في واقعهم، إلا عن طريق القراءة والتأويل، كما أن اللغة التي صيغ بها القرآن الكريم ينظر إليها الفكر المعاصر باعتبارها ظاهرة اجتماعية ثقافية تحيل بدورها إلى الإنساني والواقعي، ومن هنا فالقراءة ستكون بشرية ترتبط بواقع الناس من جهة، وبأفقهم المعرفي وأفق انتظارهم وتساؤلاتهم الظاهرة والمضمرة ومعارفهم وتجاربهم وعدتهم المنهجية التأويلية المتوسل بها في التفسير ومطالبهم

1 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص.197.

المختلفة باختلاف الفنون والتخصصات، وكل هذا يزيد قول "إلهية المصدر وبشرية القراءة بالنسبة للقرآن الكريم" تأكيدا وتعزيزا ويذهب صفة التناقض والتهافت عنها.

وهكذا فمن المشروع عقلا ومنطقا استعمال وسائل البشر التأويلية والقرائية لفهم القرآن الكريم، فإذا كان القرآن الكريم منزلا للبشر وبلغتهم العربية خاصة، فهل هناك من منهج غير مناهج البشر لفهم آياته وإدراك معانيه؟

وعلماء الأمة من مفسرين وفقهاء وأصوليين لم يترددوا في استعمال كل الوسائل المنهجية والأدوات التأويلية التي أتيحت لهم في عصرهم، من أجل تفسير آيات القرآن وتأويلها، ومن هنا يمكن القول: إنه من الواجب على من تصدى لقراءة النص القرآني تفسيرا وتأويلا، أن ينهل من علوم العصر، وأن يوظف ما وصلت إليه من تطور بالغ الأهمية على مستوى مناهج القراءة ووسائل التأويل وأدوات ومبادئ الفهم للنص اللغوي مما يمكن الاستفادة منه، شرط تخليصها من خصوصياتها الثقافية، ولا خوف إذاك من تهديد هذه الأدوات والمناهج للنص القرآني، لأن لهذا النص من المتانة والقوة ما يحميه من شر كل شيء، وهو السر الذي أودعه الله تعالى فيه لأنه كلامه المعجز الذي تكفل سبحانه بحفظه على مر العصور والأزمان، بل عُدَّ مدخل اللغة أساسيا لفهم الكتاب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وفي ذلك يقول الشافعي رحمه الله: "لا يعلم من إيضاح جمل الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها"، وهذا يمهد الطريق لتسطير قاعدة أساسية من أصول التفسير مفادها أن: **علم اللسان العربي أساس وسبيل فهم وتبين وتفسير القرآن الكريم**.

الشعر وأساليب البيان العربي سبيل الكشف عن المرادات القرآنية

إن العلاقة بين الإنسان والقرآن تتخذ من اللغة سبيلا أساسيا لا غنى عنه لكل ناظر في كتاب الله عز وجل، وذلك أن الله تعالى اختار لغة الإنسان سبيلا للبيان، ليفهم الإنسان عن الله مراده من إنزال الوحي، فيقبل على فعله وهو يدرك المطلوب ويعرف الغايات، وهذا جعل حركة التفسير للقرآن الكريم منذ بداياتها بعد وفاة النبي ﷺ تتوسل باللغة العربية وقوانينها والبيان وأساليبه.

يقول ابن عاشور رحمه الله: "فاستمداد علم التفسير ... من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار، ومن أخبار العرب، وأصول الفقه قيل وعلم الكلام وعلم القراءات. أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة، بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين[1] الذين درسوا علوم اللسان ودونوها"[2].

فالعلوم الإسلامية فيها علوم الغاية وعلوم الوسيلة، والوسيلة تنال حكم الغاية، فلزوم ووجوب فهم القرآن أدى إلى لزوم ووجوب فهم الكلام العربي وصيغه وقوانينه، ليسلم بذلك فهم الخطاب الذي انبنى به. إن هم التأسيس العلمي للغة العربية كان بسبب السعي لبسط الأحكام والتشريعات والحقائق والقيم أمام العقل المسلم، فامتد علم التفسير إلى النحو والبلاغة والمنطق والفقه والأصول والكلام، وذلك من أجل إعداد العدة المنهجية التأويلية اللازمة للفهم السليم لآي الذكر الحكيم.

1 - المولد بفتح اللام هو العربي غير المحض.

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.18.

إن اللغة العربية نالت شرفها ورفعتها بنسبتها لكلام الله فنالت حظوة الاهتمام الذي عز نظيره في التاريخ الإنساني، وكان هذا المقام الرفيع والضرورة العلمية سببان في التأسيس العلمي لهذه اللغة نحوا وتصريفا وإعرابا وتركيبا وبيانا وبديعا وبلاغة، وترك علماء المسلمين في ذلك أثرا عظيما يمكن أن يكون مرجعا لكل مقبل على هذا اللسان ولكل مريد فهم القرآن وسنة النبي وتشريعات الإسلام.

إن كل ما انتسب للقرآن الكريم نال الدرجة الرفيعة، واللغة العربية نالت شرفها من نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وهي بذلك جعلت لغة أهل الجنة، وبسبب كونها لغة القرآن أقبل عليها العلماء دراسة وبحثا وتقعيدا، فأصبحت بذلك لغة مرجعية ولغة من اللغات الحية، وحقق لها هذا الانتقاء الرباني وهذا الاهتمام البشري الانتشار في المكان بين الأقوام والأقطار حيث ما حل الإسلام وأهله، كما حقق لها الاستمرار التاريخي، والوجود الحضاري، والانتشار الثقافي، والحضور المعرفي والعلمي، إذ أصبحت لغة العلوم في زمن التميز الحضاري الإسلامي، فأقبل عليها المسلم وغير المسلم لأنها سبيل الظفر بالعلوم والمعارف، وهذه الخصائص هي التي جعلت منها لغة حية عالمية، ولولا هذا التميز والرفعة الدينية لهذه اللغة وكذا التأسيس العلمي لها لاندرست أو لأحجمت عن الذيوع والانتشار، كما حصل للكثير من لغات الأمم عبر تاريخ الإنسان، خاصة وأن اللغة والثقافة العربية شفوية وغير عالمة، فنقلهما القرآن والإسلام إلى العلمية والعالمية والانتشار والتداول العلمي وإنتاج المعرفة.

إن اللغة العربية شكلت جسرا ثقافيا بين بيئة العرب قبل الإسلام وبين الثقافة الإسلامية الجديدة، والتي لم تقطع صلتها بماضيهم، فزمن النبوة امتداد ثقافي واجتماعي ولغوي للعرب قبل البعثة، ولهذا التمس علماء الإسلام أسس التقعيد العلمي لهذه اللغة في بيئة العرب الأصلية من خلال أهم معالم إبداعهم وتميزهم، فالعرب كانوا قليلي الصلة والاهتمام بالكتابة، لكنهم كانوا أهل فصاحة وشعر، ولهم في ذلك آيات تميز وحسن بيان، ولهذا التمس علماء التفسير واللغة في الشعر وسيلة لإدراك المبهم والغريب في ألفاظ وأساليب البيان في القرآن الكريم، فالشعر باعتباره

جسرا رابطا بين العربية الأصيلة وبين لغة القرآن أسعف العلماء في كشف الكثير من غوامض الكلام وأسرار البيان القرآني، خاصة وأن خطاب الوحي كان شبيها في جزالة ألفاظه وغزارة معانيه بالشعر العربي، فهو المغدق أسفله المثمر أعلاه الحلو العذب في تلقيه المرونق في حلته.

إن الشعر كان مدخلا أساسيا لفهم القرآن الكريم وتفسير معانيه، فبه كشف العلماء أساليب التخاطب العربي وأوجه الفصاحة عندهم وصور البيان وضروب الكلام ومعاني الألفاظ المألوفة منها والغريبة، وأسسوا وقعدو لذلك بمبادئ أسعفتهم ومن بعدهم بقواعد وقوانين لفهم الخطاب القرآني خاصة وكل كلام عربي عامة.

قال عمر ﷺ: "عليكم بديوانكم لا تضلوا، هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم"، وعن ابن عباس ﷺ: "الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه"، وكان كثيرا ما ينشد الشعر إذا سئل عن بعض حروف القرآن، قال القرطبي :سئل ابن عباس، عن السِنَةِ في قوله تعالى: "لا تأخذه سنة ولا نوم" فقال: النعاس، وأنشد قول زهير:

لا سِنَةٌ في طوال الليل تأخذه ولا يـــنام ولا فــي أمـــره فند

وسئل عكرمة ما معنى الزنيم في قوله تعالى: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾، فقال هو ولد الزنى، وأنشد:

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم[1]

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.22.

المعجم ومعاني الألفاظ في تفسير القرآن الكريم

ومما اهتم به علماء التفسير معاني الألفاظ بكشف خفاء الغريب ودرء الغموض عن المحتمل والمبهم منها، مما ساهم في ظهور وتطور علم المعجم عند العرب، من خلال الكشف عن غريب القرآن والحديث والأشعار، وللمعجم دور كبير في فهم الخطاب وتأويل الكلام، وهو أساس للفهم والإفهام، وفيه نوعان معجم تختزنه الذاكرة الثقافية لأهل تلك اللغة، وآخر مبسوط مسطور في المعاجم التي تتطور بتطور فكر وعلم وعمران وحضارة الإنسان. إن اهتمام علماء اللغة والتفسير بالمعجم العربي كان ضرورة علمية ودينية وثقافية، لأسباب كثيرة وعوامل متباينة، منها ما أصاب المسلم من عجمة لما اختلطت الشعوب والثقافات في الإسلام، وفسد اللسان واختل الفهم، لعدم اقتصار اللسان العربي على العرب الأقحاح الذين يتكلمون العربية سليقة وسجية، ويفهمون غريب الألفاظ ويؤدونها سليمة من اللحن والخطأ، مما دعا علماء التفسير إلى بيان البين وشرح الواضح درءا لفساد الفهوم وتعدد المعاني، فظهرت المعاجم العربية وكذا القرآنية، دون أن ننسى البدايات الأولى للتفسير عند الصحابة والتابعين، والتي اهتمت بالمادة المعجمية اهتماما بالغا، فجاءت الكثير من تفسيراتهم بيانا لغويا وشرحا معجميا للألفاظ والعبارات.

والاهتمام بالمعجم القرآني والعربي كان بسبب غموض بعض الألفاظ وغرابتها، أو بسبب تدني فصاحة وتلقي غير العربي، ولهذا كانت الغرابة في الألفاظ، إما غرابة أصلية في بعض العبارات القرآنية والعربية، مثال ذلك كلمة قطمير في قوله تعالى: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾، وتدل على تلك القشرة البيضاء الرقيقة بين النواة والتمرة، وفي ذلك دلالة على اضمحلال مكانة المدعو من دون الله. وكذلك قوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾، التي بقي الخفاء لصيقا بها رغم محاولات تبينها وتأويلها.

وقد تكون الغرابة في الألفاظ غرابة حالة بسبب معاني شرعية أحلها الشارع الحكيم محل المعاني العربية الأصلية، أو اللفظ ليس غريبا عند العرب بل عدم فهمه بسبب إغرابه على متلقيه غير العربي، أو عند الذي تراخى زمنه عن زمن الأوائل، حيث تراجع اللسان وقلت الفصاحة وساء الفهم، فدعا ذلك العلماء إلى شرح الألفاظ غريبها وبيِّنِها في مصنفات خاصة بذلك أو في كتب التفسير[1].

وفي هذا قال ابن عاشور رحمه الله: "إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم، لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين"[2].

إن قيمة فهم القرآن وإدراك معانيه دفع علماء التفسير إلى الاهتمام باللغة العربية وبقوانينها وبمعجمها، فهم اهتموا بالوسيلة اهتمامهم بالغاية المدركة بهذه الوسيلة، مما جعلهم يؤسسون لهذه اللغة تأسيسا علميا قل نظيره، متوسلين بالاستقراء والسماع والقياس ثم التقعيد والتقييد في مصنفات ومؤلفات مستقلة في النحو والبلاغة وممتدة في كتب التفسير والأدب والفقه والحديث، هذه المؤلفات التي كانت سبيلا لانتشار هذه العلوم اللغوية في الزمان والمكان في الحضارة العربية الإسلامية، وسبيلا لانتقالها لغيرها من الثقافات والحضارات.

ومن دواعي الاهتمام باللغة العربية في بيان معاني القرآن الكريم تعدد أوجه واحتمالات المعنى في لغة العرب وكذا لغة القرآن، مما دعا للاهتمام بأساليب البلاغة

1- وهناك أوجه أخرى من الغرابة مرتبطة بالمركب من الألفاظ أو بالسياق، حيث يصبح اللفظ غريبا مهما في تركيب معين أو في سياق ما.

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.18.

العربية توجيها للفهوم الوجهة السليمة وتقويما لها وصيانة لها عن تحميل العبارات القرآنية ما لا تقبله قوانين التخاطب العربي، فالفهم يختلف في قوله تعالى ﴿حتى يطهرن﴾ إن قرئت بسكون الطاء وضم الهاء عن المعنى إن قرئت بتشديد الهاء والطاء، وهذا يؤدي لا محالة لاختلاف الأحكام الفقهية القائمة على هذه الفهوم، وكذا الأمر فيما يترتب من فهوم في حقائق إيمانية مرتبطة بقوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ حيث أدى الفهم الخاطئ إلى تصورين خاطئين بسبب تعدد معاني لفظ اليد، حيث يحتمل القدرة ويحتمل العضو ويحتمل الفضل. ولهذا فاهتمام علماء التفسير باللغة العربية ومعجمها وأساليبها كان لصيانة الفهوم التي تعد أساس فقه الأحكام وبناء التصورات ونهل التصديقات القلبية والحقائق الإيمانية.

إن فهم اللغة العربية ومعرفة معاني ألفاظها ولطائف غرائبها وإدراك قوانينها وأساليب التخاطب فيها مدخل أساسي لتفسير آي الذكر الحكيم وفهم مرادات الشارع فيها؛ التشريعية والعقدية والأخلاقية، وذلك هو عين التفسير الذي هو جهد بشري وفعل إنساني يروم الفهم والتبين للخطاب الشرعي بوسائل البشر وأساليب التخاطب والتواصل عنده انطلاقا من آيات لا يستغنى في فهمها عن اللغة ومعجمها وقوانينها وشعرها وبلاغتها ونحوها.

ومثال ذلك ما أورده الطبري بيانا لغرائب ومبهمات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، حيث لا يمكن فهم الآية الكريمة إلا بشرح وفهم بعض الكلمات المفاتيح، وهي "رئاء" و"صفوان" و"وابل" و"صلدا" إذاك يمكن أن يتيسر فهم المعاني المنطوقة والمفهومة وإدراك المرادات التشريعة والإيمانية العقدية، وفي هذا يقول إمام التفسير بالأثر ابن جرير الطبري متوسلا بالمعجم والنحو والتصريف والشعر: "يعني تعالى ذكره بذلك: فمثل هذا الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر والهاء في قوله "فمثله" عائدة على

الذي، "كمثل صفوان" يعني تعالى ذكره بذلك: فمثل هذا الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر... كمثل صفوان والصفوان واحدٌ وجمعٌ، فمن جعله جمعًا فالواحدة صفوانة بمنزلة تمرة وتمر ونخلة ونخل، ومن جعله واحدًا جمعه في صِفْوان، وصُفِيّ، وصِفِيّ، كما قال الشاعر:

مَوَاقِعُ الطَّيْرِ عَلَى الصُّفِيِّ

والصفوان هو الصفا وهي الحجارة الملس.

وقوله "عليه تراب"، يعني: على الصفوان ترابٌ فأصابه يعني: أصاب الصفوان وابل، وهو المطر الشديد العظيم، كما قال امرؤ القيس:

سَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ سَاقِطُ الأكْنَافِ وَاهٍ مُنْهَمِرُ

يقال منه: وَبلت السماء فهي تَبِل وَبْلا وقد وُبلت الأرض فهي تُوبَل

وقوله "فتركه صلدًا" يقول: فترك الوابلُ الصفوانَ صَلدًا.

و الصلد من الحجارة: الصلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، وهو من الأرَضين ما لا ينبت فيه شيء، وكذلك من الرؤوس، كما قال رؤبة:

لَمَّا رَأَتْنِي خَلَقَ المُمَوَّهِ بَرَّاقَ أَصْلادِ الجَبِينِ الأجْلَهِ

ومن ذلك يقال للقدر الثخينة البطيئة الغلي "قِدْرٌ صَلود، وقد صَلدت تصْلُدُ صُلودًا ومنه قول تأبط شرًّا:

وَلَسْتُ بِجِلْبٍ جِلْبِ رَعْدٍ وَقِرَّةٍ وَلا بِصَفًا صَلْدٍ عَنِ الخَيْرِ أعْزَلِ

ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثلَ لأعمالهم، فقال: فكذلك أعمالهم بمنزلة الصَّفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابلُ من المطر، فذهب بما عليه من التراب، فتركه نقيًّا لا تراب عليه ولا شيء، يراهُم المسلمون في الظاهر أنّ لهم أعمالا كما يُرى التراب على هذا الصفوان بما يراؤونهم به، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله، اضمحلّ ذلك كله، لأنه لم يكن لله، كما ذهب الوابل من المطر بما كانَ

على الصفوان من التراب، فتركه أملسَ لا شيء عليه، فذلك قوله: "لا يقدرون" يعني به: الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يقول: لا يقدرون يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا في الدنيا لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلب ما عند الله في الآخرة، ولكنهم عملوه رئاء الناس وطلبَ حمدهم. وإنما حظهم من أعمالهم، ما أرادوه وطلبوه بها"[1].

وروى أئمة الأدب أن عمر بن الخطاب ﵁ قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿أَو يأخذهم على تخوف﴾، ثم قال ما تقولون فيها؟ أي في معنى التخوف، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فقال عمر: وهل تعرف العرب ذلك في كلامها؟ قال: نعم[2].

1 - تفسير الطبري.

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.22.

علما البيان والمعاني سبيل لفهم كوامن المباني

إن البيان والمعاني من علوم اللغة ومباحث البلاغة العربية لا يستغني عنهما عربي في التخاطب باللسان العربي فبهما تسلم الألسن وتصان الفهوم، وبواسطتهما تسلم نتائج تفسير كتاب الله العزيز، وتُبَيَّن خصائص البلاغة القرآنية، قال الزمخشري رحمه الله في الكشاف: "علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علما البيان والمعاني".

وقال السكاكي رحمه الله في مفتاح العلوم: "وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين: المعاني والبيان، كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير، وهو فيهما راجل".

وقال في آخر فن البيان من المفتاح: "لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه، من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها، واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة"[1].

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.19-20.

الأمثال والخطب عند العرب الأقحاح ودورها في صناعة الذوق عند المفسر

إن الذوق الأدبي أساس في استكناه المعاني وإدراك خواص الكلام والتلذذ بجماله وتدبر فوائده واقتناص مغازيه، وإن صنعة التفسير تحتاج صفاء القرائح ورقة الطباع وصفاء القلوب ووفرة المعلومات ورفعة الذوق الأدبي والحس البياني، وذلك لا يكتسب إلا بمثافنة معالي الكلام في أشعار العرب وأمثالها وخطبها، يقول ابن عاشور رحمه الله: "أما استعمال العرب، فهو التملي من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وأمثالهم وعوائدهم ومحادثاتهم، ليحصل بذلك لممارسة المولد ذوق يقوم عنده مقام السليقة والسجية عند العربي القح، والذوق كيفية للنفس بها تدرك الخواص، والمزايا التي للكلام البليغ، قال شيخنا الجد الوزير: وهي ناشئة عن تتبع استعمال البلغاء فتحصل لغير العربي بتتبع موارد الاستعمال والتدبر في الكلام المقطوع ببلوغه غاية البلاغة، فدعوى معرفة الذوق لا تقبل إلا من الخاصة، وهو يضعف ويقوى بحسب مثافنة ذلك التدبر"[1].

وقال السكاكي: "ليس من الواجب في صناعته وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل، أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكيمات وضعية، واعتبارات إلفية، فلا بأس على الدخيل في علم المعاني أن يقلد صاحبه في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك إلى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق"[2].

ومما يبرز دور الذوق في إدراك أسرار المعاني استنادا إلى مادة وقوانين الاستعمال العربي ما رواه مالك رحمه الله في الموطأ عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.23.

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.23.

حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾، فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة ﵂: كلا لو كان كما تقول، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة الطاغية، وكانت مناة حذو قُدَيْدِ، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية، فبينت له ابتداء طريقة استعمال العرب، لو كان المعنى كما وهمه عروة ثم بينت له مثار شبهته الناشئة عن قوله تعالى: فلا جناح عليه الذي ظاهره رفع الجناح عن الساعي الذي يصدق بالإباحة دون الوجوب[1]، وهذا الإدراك الخفي لأمنا عائشة ﵂ تعبير عن ذوق رفيع في فهم المعاني العربية وكشف أسرارها ومكنوناتها البيانية والتعبيرية، وذلك مصدره خبرة مكتسبة بمثافنة جيد الكلام وأحسن المقال، بمصاحبة القرآن وبيان فصيح اللسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.23.

القرآن الكريم يبين بعضه بعضا أو تفسير القـرآن بالقـرآن

الوجه الأول: تفسير الآية بالاستناد إلى الآيات الواردة في موضوعها

إن تفسير القرآن بالقرآن يعد أول أصل من أصول التفسير النقلية، إضافة إلى السنة النبوية، وأقوال الصحابة، والتابعين رضي الله عنهم، وما يروى عنهم في الناسخ والمنسوخ، والقراءات، والمكي والمدني، وأسباب النزول، وغيرها من الآثار التي لا وجه للاجتهاد فيها، لأنها توقيفية مصدرها الوحي كتابا وسنة، والتاريخ، وإخبار المعاصرين لتنزل الوحي.

القرآن الكريم بيان كله:

إن المعاني في القرآن الكريم متعددة وكثيرة، لا تستطيع أن تستوعبها المعاجم ولا أن تحيط بها العقول، فهو الكلام المثمر في معانيه المغدق في دلالاته، الذي لا يحصِر دلالاتِه فهمٌ، ولا يستنفد معانيه إدراكٌ، فهو كلام الله المنفتح الدلالة الغني المعاني، الذي لا تنفد ذخائره ولا تنقضي عجائبه ولا تنتهي عبره وحكمه، يقول الله عز وجل:﴿ "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ . وقال تعالى:﴿ "ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ .

والظفر بهذه المعاني الغنية قد يكون بالتوسل بالمعجم اللغوي، وقد يتم بالفكر والنظر، وقد يكون بالبيان النبوي، وقد يسعف القرآن نفسه بالكثير من المعاني، ولذلك فإن المبتغيَ للفهم في كتاب الله عز وجل يطلب ذلك بداية في القرآن نفسه، فالكثير من المعاني الغامضة أو المجملة يمكن إيجاد شرح لها وبيان لغموضها وإكمال لمعانيها في الذكر الحكيم، وذلك إما شرحا أو تخصيصا أو تقييدا أو درءا لغموض أو بيانا لمبهم، وقد يكون ذلك في الآية نفسها، أو في القريب من الآيات التي سيقت في نفس مساقها، أو في مواضع من آيات وسور أُخر، وهذا جعل أوجه البيان القرآني وأساليبه

تتعدد وتتباين، حيث يتم تفسير القرآن للقرآن، إما بتفسير الآية القرآنية بالاستناد إلى القراءات الواردة فيها، أو بالاستناد إلى الآيات الواردة في موضوعها[1].

ضروب تفسير الآية بالاستناد إلى الآيات الواردة في موضوعها:

وفي هذا الوجه يقول الأستاذ محمد يعقوبي خبيزة رحمه الله: وأما تفسير الآية بالآيات الواردة في موضوعها فذلك من مزايا الأسلوب القرآني أنه لم يسق المواضيع التي تطرق إليها منظمة في تسلسل وفق أبواب وفصول ومباحث ومطالب، كما هو الشأن في المؤلفات العلمية والمدونات القانونية، وإنما نثرها نثرا بين ثنايا السورة الواحدة أو السور المتعددة، وذلك من غير أن يفقد وحدته العضوية.

وقد نتج عن تلك المزية في الأسلوب القرآني أن الموضوع الواحد قد يرد مجملا أو مطلقا أو عاما أو مشكلا أو محكما، في مكان، ثم يرد ما يدل على بيانه أو تقييده أو تخصيصه أو رفع إشكاله أو نسخه، في مكان آخر. ومادام مصدر القرآن واحدا وهو في ذاته يمثل وحدة متكاملة مترابطة، فإنه لا مندوحة للمفسر إذا أراد أن يفسر آية قرآنية في موضوع معين من أن يلحظ جميع الآيات التي تشترك معها في موضوعها أو تربطها بها علاقة مناسبة، وأن يدرسها دراسة مقارنة فاحصة تمكنه من تحقيق كثير من النتائج التفسيرية"[2]، وهكذا تتعدد أوضاع وأحوال تفسير آي القرآن بعضها بعضا. ونذكر من ذلك ما يلي:

1. شرح الألفاظ وبيانها: (المعجم القرآني)

فالكثير من الألفاظ الغامضة والغريبة التي تنتمي للمعجم الشرعي القرآني جعل لها الشرع معنى جديدا، غريبا عن لغة العرب، أو قريبا منها، أو يأخذ بعضا من خصائصها، وهذه الغرائب قد يرد شرحها وبيانها في القرآن نفسه أو في السنة النبوية،

1 - محمد يعقوبي خبيزة، الوجيز في المدخل إلى دراسة تفسير القرآن الكريم، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة الثانية، ص.203.

2 - محمد يعقوبي خبيزة، الوجيز في المدخل إلى دراسة تفسير القرآن الكريم، ص.205، بتصرف.

مثال ذلك: كلمة التقوى التي تفيد في لغة العرب تفيد الحفظ والوقاية من الأذى، يقول الله عز وجل: (**ووقاهم عذاب الجحيم**)، لكن الخطاب القرآني أعطى معان شرعية جديدة لكلمة "التقوى"، مؤسسا بذلك لتصور جديد في الفكر والوجود والاعتقاد، فدأب الناس حماية أنفسهم من الأذى الظاهر المحسوس الملموس، وغفلت الأنفس عن ذلك الأذى الحقيقي الذي يمكن أن يلحقه بسبب المعصية والبعد عن الصراط القويم، فجاء المعجم القرآني بمعان جديدة تروم تقويم التفكير والإدراك في فكر المسلم وسلوكه، ولهذا يسوق القرآن الكريم آيات عدة تبين حقيقة التقوى في ميزان الشرع، وهي المعاني التي تتبادر لذهن المفسر قبل المعاني اللغوية، بل وتحل محلها، فجاء بمعان متضافرة تعبر عنها الآيات الكريمات الآتية:

- ﴿الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ، فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، حيث بين الله عز وجل حقيقة التقوى في ميزان الشرع.
- ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وهذه الآية أضافت معان جديدة للفظ التقوى في المعجم القرآني.
- ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾، فجعل التقوى سبيلا للإسلام ﴿الإيمان والإحسان﴾، كما جعل الإسلام ﴿المراسيم الظاهرة﴾ سبيلا للتقوى.

وهناك مثال آخر من شرح غريب القرآن بالقرآن يتجلى في هذا الحديث الشريف: "عَنْ عبدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عنْه، قالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هذِه الآيَةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذلكَ علَى أصْحابِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالوا: أيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ليسَ كما تَظُنُّونَ، إنَّما هو كما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ:﴿ "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

2. درء التداخل المعنوي بين الألفاظ وبين المعاني:

أما المهمة البيانية الثانية التي يقوم بها القرآن الكريم فهي درء التداخل بين الألفاظ حينا مع استواء المعاني، أو بين المعاني مع وحدة الألفاظ، أو درء الغرابة في المعاني أحيانا أخرى:

- **درء التداخل بين الألفاظ مع تساوي المعاني:**

كتمييز المعجم القرآني بين الكثير من الألفاظ في دلالتها الشرعية وإن كانت مترادفة في معانيها اللغوية، وذلك كالتمييز بين لفظي الزكاة والربا وإن دلا معا في اللغة على النماء والزيادة، لكن الشرع يفرق بينهما بمعان شرعية جديدة، وهكذا يتبين للمفسر من آيات عدة تمايز بين اللفظين، كقوله تعالى: (**يمحق الله الربا ويربي الصدقات**)، وقول الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا، فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وكلها آيات شارحة لمعنى الربا الذي يخالف معنى الزكاة، حيث التحريم للأول والمنع والإثم وسوء العاقبة، بينما الوجوب والتحضيض والحث على الثانية كواجب وفرض لا يقوم إسلام المسلم إلا به، وهذه معان شرعية جديدة يُظْفَرُ بها من الكتاب وإن كان للفظين معنى مشترك في اللغة.

- درء التداخل بين المعاني مع وحدة اللفظ:

كما يَدْرَأ البيان القرآني ذلك التداخل بين المعاني في اللفظ الواحد، فلفظ الصلاة في المعجم القرآني يحتمل العبادة والرحمة والدعاء والتسبيح، ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾، ويُفَرِّق المفسر بين هذه المعاني للفظ الواحد من خلال القرآن الكريم وسياقات التخاطب فيه، حيث يتبين له من خلال السياق حقيقةُ الصلاة في كل موضع، وجلها معان ليست أصيلة في لغة العرب، بل هي معان أتى بها المعجم الشرعي القرآني.

- درء الغرابة في معاني الألفاظ:

وهناك عبارات أخرى في القرآن الكريم تحتمل معان غريبة لا تتقبلها العقول ولا تستسيغها الأذهان، فتأتي آيات أخرى فتبين المراد، وذلك مثل احتمال قول الله عز وجل ﴿يهدي من يشاء﴾ لمعنيين مشيئة الله أو مشيئة الإنسان، لكن آيات أخر تبين أن المقصود مشيئة الله، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾، حيث الرزق بيد الله مما يؤكد نسبة المشيئة له لا لغيره، سواء في الرزق أو في الهداية.

3. بيان المجمل وتفسيره[1]:

كما في تفسير الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، الواردة مجملة في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ. فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ بأنها هي تلك التي جاءت مفصلة مبينة في قوله تعالى:﴿ "قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

1- هذه الأوجه البيانية أوردها الأستاذ محمد يعقوبي خبيزة في كتابه الوجيز في المدخل إلى دراسة تفسير القرآن الكريم، ص.206-209.

وكذا تفسير المستثنى المجمل في قوله تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾، بما ورد مفصلا في قوله تعالى:﴿ "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ .

4. تقييد المطلق:

وذلك بحمل المطلق عل المقيد ليقيد به، وخاصة عند اتحاد الموضوع والسبب، كما في تقييد الدم المحرم الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بخصوص الدم المسفوح لوروده مقيدا بذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكذا مثل تقييد الردة المحبطة للأعمال والتي تكون سبب الخسران في قوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، بالاستمرار عليها إلى الوفاة، لورودها مقيدة بذلك في قوله تعالى:﴿ "وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

5. تخصيص العام:

وذلك بحمل العام على الخاص ليخصص به، كما في تخصيص ما يجازى عليه العبد من سوء والوارد عاما في قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءا يُجز به﴾ وقوله: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾، بما لم تقع فيه توبة نصوح أو غفران، بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ

نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وقوله تعالى:﴿ "وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ .

ومثل تخصيص المحرم مما أهل به لغير الله، والوارد عاما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ بما لم يكن من ذبيحة أحد من أهل الكتاب، بدليل قوله تعالى:﴿ "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ .

6. تقريب المتشابه ودفع الإشكال في الفهم:

وذلك بتقريب معان آيات في ظاهرها مشابهة أو اشتباه لذهن القارء وجعلها ممكنة الإدراك في الذهن البشري العاجز عن إدراك المطلقات المجردات والغيبيات، كما بينت الآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ حقيقة إيمانية تنزه الله عز وجل تنزيها مطلقا عن مشابهة أحد من خلقه في شيء أو صفة، وكذا قول الله عز وجل: ﴿قل هو الله أحد﴾ الذي ينفي عن أحد غيره مشابهته، وهكذا درأت هذه الآيات كل مشابهة أو إشكال في إدراك صفات الله، بحيث تنفي التشابه بينه وبين خلقه في ذاته وصفاته، وتدرأ إشكال الفهم في آيات توحي بذلك، كقوله تعالى: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾، وقوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾، وقوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، وقوله تعالى: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾، وقوله تعالى:﴿ "وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ .

7. تمام المعنى و إتمام الأحكام بالتمييز بين الناسخ والمنسوخ:

إذ يعد استحضار الآيات التي ينسخ بعضها البعض الآخر أساسي في تفسير القرآن الكريم، حيث يتضح المعنى وتستقر الفهوم، ولا يمكن القول في آية إلا بعرضها على ماورد في موضوعها، حتى يعرف النسخ أو التخصيص أو التقييد أو إمكان الجمع، ولا يمكن لمفسر أن يقول بالفدية للقادر على الصيام في قوله تعالى: **(وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين)** إلا بعرضها على ناسخها الذي يرفع كفاية الفدية عن

صيام رمضان، حيث الوجوب العيني لكل شاهد للشهر في قوله تعالى:(**"فمن شهد منكم الشهر فليصمه)** .

وأمام هذه القيمة الكبيرة لتفسير القرآن بالقرآن فقد عده العلماء أصلا أولا، مما يجب النظر فيه بداية، إذ إن تفسير القرآن بالقرآن قاعدة ذات أهمية بالغة لا يجوز للمفسر أن يتخطاها إلى مرحلة أخرى، إلا بعد أن يوفيها حقها، بغاية ما يستطيع من احتياط ودقة، خاصة إذا لاحظنا أن أصدق الحديث كتاب الله وأنه سبحانه أعلم بمراد كلامه من غيره، وهو القائل في محكم كتابه:﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ .

القراءات القرآنية وأهميتها في تفسير القرآن الكريم

الوجه الثاني لتفسير القرآن بالقرآن: تفسير الآية بالاستناد إلى القراءات الواردة فيها

إن أول سبيل يسلكه المفسر في تفسير كتاب الله عز وجل هو سبيل تفسير القرآن بالقرآن، وفي ذلك وجهان: أولهما تفسير الآية بما ورد في موضوعها من آيات أخر، سواء مرافقة لها في نفس الموضع، أو متناثرة في مواضع أخرى من سور القرآن الكريم، وثانيهما تفسير الآية بالاستناد إلى أوجه القراءات الواردة فيها، المأثورة عن السلف لنفس الآية، والقرآن الكريم يبين بعضه بعضا، وتفسر بعض آياته آيات أخرى، ويعد علم القراءات من علوم الآلة وعلوم الوسائل التي لا يقصد طلبها لذاتها، فهي إلى جانب تقويمها للنطق بالألفاظ القرآنية وصيانة أداء وتلاوة القرآن، فهي تساهم في صيانة اللفظ القرآني ورسم المصحف ومن هنا يصان الفهم بصيانة الأداء الذي يعد مدخلا لحسن الفهم، فالقراءة السليمة سبيل للفهم السليم، وصيانة اللفظ القرآني ورسم المصحف سبيل لصيانة المعاني والفهوم، خاصة وأن الثقافة العربية ثقافة شفوية، ما جعل العلماء يولون اهتماما خاصا للانتقال من الشفوية إلى الكتابة، فالقرآن لم يكن مشكولا ولا منقوطا في التقييدات الأولى، فتوالت الجهود ليتحقق الجمع والكتابة ثم الشكل والنقط والوقف مع صيانة الحفاظ أهل السند لكل ذلك، وفائدة القراءات في التفسير تتجلى من خلال هذه الصور المبينة فيما يلي:

1- تكثير المعاني الشارحة بعضها بعضا من خلال تباين وجوه القراءات:

من بين سبل تفسير القرآن الكريم الوقوف على وجوه القراءة في اللفظ والآية، حيث المراد من ذلك ليس فقط التعرف على أوجه النطق وحالات اللفظ والعبارة في القرآن الكريم وإدراك الأوضاع النحوية والأوجه الإعرابية القرآنية، وإنما كذلك: إدراك أحوال اللسان العربي في النطق، وأوضاع الكلمات في النحو العربي، وأساليب العرب في النطق، وكذا الوقوف عند أسرار البيان القرآني، والتمكن من ناصية المعاني

الخفية الكامنة في القرآن الكريم، وكثير من الألفاظ الغامضة أو المحتملة لمعان عدة أو المتشابهة أسعفت وجوه قرائية أخرى في درء غموضها وبيان المقصود منها ورفعت التشابه والاشتباه عنها، ولهذا تعلق فعل التفسير أيما تعلق بالقراءات وأوجهها فهي تساعد على تكثير المعاني وإدراك الخفاء ودرء الغموض، لما تسعف به من مطالب تفسيرية وفوائد تأويلية، ويمكن تقسيم القراءات إلى نوعين:

- أحدها نوع من القراءات لا دخل له في التفسير:

وهي: "اخْتِلَافُ الْقُرَّاءِ فِي وُجُوهِ النُّطْقِ بِالْحُرُوفِ وَالْحَرَكَاتِ كَمَقَادِيرِ الْمَدِّ وَالإِمَالَاتِ وَالتَّخْفِيفِ وَالتَّسْهِيلِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْجَهْرِ وَالْهَمْسِ وَالْغُنَّةِ، مِثْلَ (عَذَابِي) بِسُكُونِ الْيَاءِ وَ(عَذَابِيَ) بِفَتْحِهَا، وَفِي تَعَدُّدِ وُجُوهِ الإِعْرَابِ مِثْلَ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُول بِفَتْحِ لَامِ (يَقُول) وَضَمِّهَا، وَنَحْوَ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ بِرَفْعِ الأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ أَوْ فَتْحِهَا أَوْ رَفْعِ بَعْضٍ وَفَتْحِ بَعْضٍ، وَمَزِيَّةُ الْقِرَاءَاتِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ عَائِدَةٌ إِلَى أَنَّهَا حَفِظَتْ عَلَى أَبْنَاءِ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَمْ يَحْفَظْهُ غَيْرُهَا وَهُوَ تَحْدِيدُ كَيْفِيَّاتِ نُطْقِ الْعَرَبِ بِالْحُرُوفِ فِي مَخَارِجِهَا وَصِفَاتِهَا وَبَيَانِ اخْتِلَافِ الْعَرَبِ فِي لَهَجَاتِ النُّطْقِ بِتَلَقِّي ذَلِكَ عَنْ قُرَّاءِ الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ، وَهَذَا غَرَضٌ مُهِمٌّ جِدًّا لَكِنَّهُ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالتَّفْسِيرِ لِعَدَمِ تَأْثِيرِهِ فِي اخْتِلَافِ مَعَانِي الآيِ، وَلَمْ أَرَ مَنْ عَرَفَ لِفَنِّ الْقِرَاءَاتِ حَقَّهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَفِيهَا أَيْضًا سَعَةٌ مِنْ بَيَانِ وُجُوهِ الإِعْرَابِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، فَهِيَ لِذَلِكَ مَادَّةٌ كُبْرَى لِعُلُومِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ"[1].

- ثانيها القراءات التي لها مدخل في التفسير:

أما النوع الثاني من القراءات فهو ذلك الذي له مدخل في التفسير ويساعد على بيان المرادات القرآنية وكشف الغوامض ودرء التشابه، كقراءة هذه الآيات بوجهين يبين أحدهما الآخر:

---

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.51.

- زيادة الفاء في قوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾، حيث بينت السببية والترتب والحصر بوضوح بين المصيبة وكسب الإنسان.

- قراءة قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ بوجهين ﴿حسنا﴾ و﴿إحسانا﴾، وفي ذلك زيادة بيان للفظ الحسن المحتمل لمعان عدة بكلمة الإحسان القريبة فَهْمًا والدالة على البر وحسن المعاملة.

- ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، حيث قرئت في رواية بصيغة الخبر وهي بعيدة الدلالة عن الأمر، لكن قراءة أخرى أسعفت في القول أنه خبر أريد به إنشاء وأمر.

وهذا نص للإمام المفسر الطاهر بن عاشور رحمه الله يبين بعض أحوال القراءة وأوجهها التي تفيد في بيان المعاني وتكثيرها ودرء الغموض عنها في القرآن نفسه، حيث يقول: "وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ اخْتِلَافُ الْقُرَّاءِ فِي حُرُوفِ الْكَلِمَاتِ مِثْلَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وَ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وَ﴿نَنْشُرُهَا﴾ [1] وَ﴿نُنْشِزُهَا﴾ وَ ﴿ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بِتَشْدِيدِ الذَّالِ أَوْ ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾ بِتَخْفِيفِهِ، وَكَذَلِكَ اخْتِلَافُ الْحَرَكَاتِ الَّذِي يَخْتَلِفُ مَعَهُ مَعْنَى الْفِعْلِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ قَرَأَ نَافِعٌ بِضَمِّ الصَّادِ وَقَرَأَ حَمْزَةُ بِكَسْرِ الصَّادِ، فَالْأُولَى بِمَعْنَى يَصُدُّونَ غَيْرَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنَى صُدُودِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ حَاصِلٌ مِنْهُمْ، وَهِيَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَهَا مَزِيدُ تَعَلُّقٍ بِالتَّفْسِيرِ لِأَنَّ ثُبُوتَ أَحَدِ اللَّفْظَيْنِ فِي قِرَاءَةٍ قَدْ يُبَيِّنُ الْمُرَادَ مِنْ نَظِيرِهِ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى، أَوْ يُثِيرُ مَعْنًى غَيْرَهُ، وَلِأَنَّ اخْتِلَافَ الْقِرَاءَاتِ فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ يُكَثِّرُ الْمَعَانِيَ فِي الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ نَحْوَ ﴿حَتَّى يَطَّهَّرْنَ﴾ بِفَتْحِ الطَّاءِ الْمُشَدَّدَةِ وَالْهَاءِ الْمُشَدَّدَةِ، وَبِسُكُونِ

1- هذه القراءة ردها الطبري لأنها من النشر، والأولى القول "نُنْشِزُها" من الإنشار وهو الإحياء، وهو الأقرب للسياق، ووردت بنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾، حيث قال الطبري في تفسيره: "وإذا كان ذلك كذلك وكان معنى "الإنشاز" تركيب العظام وردها إلى أماكنها من الجسد، وكان ذلك معنى "الإنشار"، وكان معلوما استواء معنييهما، وأنهما متفقا المعنى لا مختلفاه، ففي ذلك إبانة عن صحة ما قلنا فيه. وأما القراءة الثالثة، فغير جائزة القراءة بها عندي، وهي قراءة من قرأ: ﴿كيف ننشرها﴾ بفتح النون وبالراء؛ لشذوذها عن قراءة المسلمين، وخروجها عن الصحيح الفصيح من كلام العرب.

الطَّاءِ وَضَمِّ الْهَاءِ مُخَفَّفَةً، وَنَحْوَ ﴿لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وَ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، وَقِرَاءَةِ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ مَعَ قِرَاءَةِ ﴿الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾، وَالظَّنُّ أَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ بِالْوَجْهَيْنِ وَأَكْثَرَ، تَكْثِيرًا لِلْمَعَانِي إِذَا جَزَمْنَا بِأَنَّ جَمِيعَ الْوُجُوهِ فِي الْقِرَاءَاتِ الْمَشْهُورَةِ هِيَ مَأْثُورَةٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَجِيءُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ تِلْكَ الْوُجُوهِ مُرَادًا لِلَّهِ تَعَالَى لِيَقْرَأَ الْقُرَّاءُ بِوُجُوهٍ فَتَكْثُرَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ الْمَعَانِي، فَيَكُونُ وُجُودُ الْوَجْهَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي مُخْتَلِفِ الْقِرَاءَاتِ مُجْزِئًا عَنْ آيَتَيْنِ فَأَكْثَرَ، وَهَذَا نَظِيرُ التَّضْمِينِ فِي اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ، وَنَظِيرُ التَّوْرِيَةِ وَالتَّوْجِيهِ فِي الْبَدِيعِ، وَنَظِيرُ مُسْتَتْبَعَاتِ التَّرَاكِيبِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي، وَهُوَ مِنْ زِيَادَةِ مُلَاءَمَةِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، ... وَأَنَا أَرَى أَنَّ عَلَى الْمُفَسِّرِ أَنْ يُبَيِّنَ اخْتِلَافَ الْقِرَاءَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ لِأَنَّ فِي اخْتِلَافِهَا تَوْفِيرًا لِمَعَانِي الْآيَةِ غَالِبًا فَيَقُومُ تَعَدُّدُ الْقِرَاءَاتِ مَقَامَ تَعَدُّدِ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ"[1].

وفي هذا النص يبين ابن عاشور رحمه الله كيف أن وجوه القراءات تساعد على تكثير أوجه المعاني الشارحة بعضها بعضا، أو المكملة بعضها بعضا، أو الدارئة لغموض بعض الغرائب في القرآن الكريم، ولهذا لا يستغني فعل التفسير عن استحضار أوجه القراءات للظفر بالمعاني ودرء الغموض، وهو ما نلمسه عند المفسرين، كالطبري والقرطبي وابن كثير والطاهر بن عاشور وغيرهم، وقد روي عن مجاهد أنه قال: "لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته عنه"[2].

وإليك أحوال أخرى يشرح فيها القرآن القرآن بتنويع القراءات واختلاف مواضع الوقوف، ولا يسع المفسر في ذلك سوى بيان الأمر واستحضار الأوجه لتتضح المعاني، ومن ذلك:

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص.55-56.

2 - اخبيزة، الوجيز، ص.205.

2- تكثير المعاني المتضافرة في بيان المراد:

مثل قراءة قوله تعالى في وصف حال قوم ياجوج وماجوج: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، حيث قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى دامجا بين معنيي وجهي القراءة: "وقوله: وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا، يقول عزّ ذكره: وجد من دون السدّين قوما لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم. وقد اختلفت القرّاء في قراءة قوله:﴿ "يَفْقَهُونَ﴾ فقرأته عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة ﴿يَفْقَهُونَ قَوْلا﴾ بفتح القاف والياء، من فقَه الرجل يفقَه فقها: وقرأ ذلك عامَّة قرّاء أهل الكوفة ﴿يُفْقِهُونَ قَوْلا﴾ بضمّ الياء وكسر القاف: من أفقهت فلانا كذا أفقهه إفقاها: إذا فهمته ذلك. والصواب عندي من القول في ذلك، إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، غير دافعة إحداهما الأخرى، وذلك أن القوم الذين أخبر الله عنهم هذا الخبر جائز أن يكونوا لا يكادون يفقهون قولا لغيرهم عنهم، فيكون صوابا القراءة بذلك. وجائز أن يكونوا مع كونهم كذلك كانوا لا يكادون أن يُفْقِهُوا غيرهم لعلل: إما بألسنتهم، وإما بمنطقهم، فتكون القراءة بذلك أيضا صوابا".

3- درء الغموض في المشتبه من العبارات والمتشابه.

كتبيين معنى إمكان علم المتشابه؛ هل هو خاص بالله عز وجل وحده أم يمكن ذلك للخلق في قوله تعالى:(**"هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**) .

حيث قال ابن كثير في تفسير العلم بالمتشابه: وقوله: **(وما يعلم تأويله إلا الله)** اختلف القراء في الوقف هاهنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من

لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل. ويروى هذا القول عن عائشة، وعروة، ... وغيرهم. وقد قال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير: ... عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله، (**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب**) الآية، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه (غريب جدا)...، وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: كان ابن عباس يقرأ: (**وما يعلم تأويله إلا الله**)، ويقول الراسخون: (**آمنا به**) وكذا رواه ابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: إنْ تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به" وكذا عن أبي بن كعب، واختار ابن جرير هذا القول، ومنهم من يقف على قوله: (**والراسخون في العلم**)، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا : الخطاب بما لا يفهم بعيد، وقد روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس، وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير:("**وما يعلم تأويله**) الذي أراد ما أراد(**إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به**) ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضا، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[1]. وهكذا تسعف هذه الوجوه القرائية في تبين متشابه يحتمل الجمع بين المعنيين، حيث اختص الله عز وجل بعلم المتشابه مع تصديق الراسخين في العلم به والتسليم له، وكشف بعض الأسرار

1 - تفسير ابن كثير.

والخفايا لبعضهم، وهذا ما تشهد به التجربة التفسيرية وكشوفات المفسرين ولطائف فهومهم قديما وحديثا.

4. بيان الأحكام الشرعية:

حيث قد يرد حكم شرعي عير مكتمل المعنى في وجه قرائي، لا يكتمل ولا يستوي إلا بالوجه الثاني في القراءة، مثال ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد جاء في قراءة أخرى ﴿أو تحرير رقبة مؤمنة﴾، بزيادة كلمة مؤمنة فتبين بها اشتراط الإيمان في الرقبة المطلوب تحريرها في كفارة اليمين[1].

5. الزيادة في المبنى زيادة في المعنى:

كما في قوله تعالى ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾، فقد قرئت كلمة يطهرن بالتخفيف والتشديد، وقراءة التخفيف تدل على أن الزوج يمكنه إتيان زوجته بمجرد حصول أصل الطهر وهو انقطاع دم الحيض عنها، بينما قراءة التشديد تفيد أن ذلك لا يمكن إلا بالتطهر من طرف الحائض بواسطة الغسل، وهذه الزيادة في المبنى تفيد زيادة في المعنى، إذ لا بد من الطهرين معا لجواز القرب والجماع[2].

1 - محمد يعقوبي خبيزة، الوجيز في المدخل إلى دراسة تفسير القرآن الكريم، ص.204.

2 - محمد يعقوبي خبيزة، الوجيز في المدخل إلى دراسة تفسير القرآن الكريم، ص.204.

6. درء الإبهام والغرابة في الألفاظ:

يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾، حيث قرئت كلمة "أرجلكم" بنصب اللام عطفا على الوجه واليدين، فيفيد ذلك وجوب غسل الجميع، بينما الوجه الثاني وهو الخفض جعلها معطوفة على الرأس في المسح، وهذا يفيد مسح الرجلين في الوضوء بدل الغسل، وهناك من حاول التوفيق بينهما، حيث الغسل هو الأصل والمسح عند لبس الخفين أو ما هو في حكمهما.

7. درء الغموض في المعاني:

يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾، وقرئت كذلك: ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾، حيث القراءة الأولى يفهم منها الذهاب سعيا أي بسرعة كما يدل على ذلك لفظ السعي لغة والذي هو سرعة دون الجري، وهذا مخالف للسكينة المطلوبة في الذهاب للصلاة، ويدرأ هذا الغموض الوجه الثاني للقراءة الذي فيه حث على المضي وترك المشاغل الملهية عن الواجب.

8. مزيد بيان للألفاظ والمعاني:

كما في قوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾، حيث قرئت في وجه آخر ﴿كالصوف المنفوش﴾، وفي هذا مزيد بيان لغريب في القرآن. وكما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ وفي قراءة: ﴿فتثبتوا﴾، حيث مزيد بيان يفيد وجوب التثبت والتبين عند تلق الخبر من غير مستأمن في أخلاقه.

البيان النبوي وتفسير القرآن الكريم

البيان الشرعي يتضافر فيه الكتاب والسنة:

لقد ذكر ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالته حول أصول التفسير، أن أصح الطرق وأحسنها في التفسير هي: أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ وفصل في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإن أعيى ذلك المفسر واستنفد الجهد فعليه بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾، وقد قال ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"، وقال الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإن لم يجد المفسر المطلوب في السنة يرجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن ولما أعطاهم الله من الفهم العجيب، فإن لم يوجد ذلك يرجع إلى النظر والاستنباط بالشرط السابق"[1].

وقد بين الإمام الشافعي رحمه الله في رسالته أوجه البيان في الخطاب الشرعي عامة، ومنه صور البيان النبوي، وذلك في إطار وضع قوانين لتفسير الخطاب القرآني الذي لم يحصر اهتمامه في الجوانب البيانية اللغوية والأدبية، بل اهتم كذلك بالمضامين التشريعية وبكيفية استخلاصها واستنباطها من النص الشرعي، معتبرا القرآن الكريم مصدرا للأحكام الشرعية فيه الإجابات الكافية للنوازل الحالة في واقع الناس، يقول الله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾، ويقول تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾.

1 . الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج.2، ص.175-176.

وهكذا فالبيان في شريعة الإسلام منه ما دل عليه القرآن الكريم الذي احتوى الإسلام كله، ومنه ما بينته السنة، خاصة فيما في بعضه إجمال فتكفلت السنة ببيان ما يحتاج منه إلى بيان، أو ما ورد كله في صورة المجمل وقد تولت السنة تفصيله، أو ما استقلت السنة به ابتداء، مجلية مترجمة كليات القرآن الكريم سائرة على أسس روح التشريع والبيان فيه، ومن الواجب الأخذ بذلك، لأن الله عز وجل قد فرض في كتابه طاعة رسوله ﷺ والانتهاء إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل.

البيان النبوي تفسير للقرآن:

إن أول ما يتوسل به المفسر بداية في تفسير القرآن الكريم مضامينه ومعانيه الكامنة في آياته ووجوه القراءة فيه، لكن ذلك قد لا يسعفه دائما بالمطلوب، مما يدعوه للبحث في مصادر وأصول أخرى، وثاني أهم وأصدق وأوثق مصدر تفسيري هو البيان النبوي، فخير بيان هو بيان القرآن، فالله الأعلم بمراده في كتابه، ثم بعد ذلك بيان السنة، التي تعد جزءا أصيلا من الوحي ومصدرا أساسيا للتشريع بعد القرآن الكريم، ولا يتم اللجوء إليها إلا بعد البحث في الكتاب، لكن أحيانا يحتاج المجتهد إلى الاستعانة بأدلتها وإن ظفر بالدليل في الأصل الأول، يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾، ويقول ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه".

وهكذا تعد السنة أو بيان النبي ﷺ أساسا في تفسير القرآن، وتفسير القرآن بالسنة يقصد به تفسير الآيات بالاستناد إلى ما ورد عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتصرفات لها مدخل في فهم الوحي وبيان حقائقه الإيمانية وقيمه الأخلاقية وأخباره التاريخية وأحكامه التشريعية، وقد قال الشافعي رحمه الله: "وكل فريضة فرضها الله تعالى في كتابه كالحج والصلاة والزكاة لولا بيان الرسول ما كنا نعرف كيف نأتيها، ولا كان يمكننا أداء شيء من العبادات، وإذا كان الرسول من الشريعة بهذه المنزلة كانت طاعته على الحقيقة طاعة لله"[1].

1 - بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة، 1988م، ج.4، ص.165.

وقال كذلك في رسالته بخصوص بيان السنة للكتاب: "لم أعلم من أهل العلم مخالفا في أن سنن النبي ﷺ من ثلاث وجوه، أحدها: ما أنزل الله عز وجل فيه نص كتاب، فسن رسول الله مثل ما نص الكتاب، والآخر: ما أنزل الله عز وجل فيه جملة فبين عن الله معنى ما أراد، والوجه الثالث: ما سن رسول الله مما ليس فيه نص كتاب".

وقال ابن جزي رحمه الله مبينا صور البيان النبوي في التشريع الإسلامي: "يقع بفعله ﷺ جميع أنواع البيان من بيان المجمل، وتخصيص العموم، وتأويل الظاهر، والنسخ"[1]، والبيان النبوي للكتاب لا يكون بالفعل فقط، لكنه يكون بالفعل والقول والتقرير، فأوجه السنة كلها بيان لأحكام القرآن الكريم وأوامره ونواهيه، بكل صور البيان. وصور البيان النبوي لآي القرآن الكريم كثيرة، نذكر منها تلك التي يستحضرها المفسرون في تفسيراتهم، وأهمها:

1- بيان معاني ألفاظ القرآن وغرائبه:

مثل بيان المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ وقد استدل الطبري وابن كثير بحديث للنبي ﷺ قال فيه في تفسير هذه الآية: "من الحيض والغائط والنخامة والبزاق"، معلقا عليه بما يلي: "هذا حديث غريب، وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن محمد بن يعقوب، عن الحسن بن علي بن عفان، عن محمد بن عبيد، به، وقال: صحيح على شرط الشيخين".

2- بيان غيبيات القرآن:

بكشف النبي ﷺ عن الكثير من حقائق الغيب وتقريبها للأذهان، وقد وردت مبهمة غامضة في القرآن الكريم، من ذلك:

1 - ابن جزي الكلبي الغرناطي، تقريب الوصول إلى علم الأصول، ص.279.

- بيانه لقوله تعالى: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ بالحديث الطويل الذي استحضره المفسرون لشرح هذه الآية وغيرها من الآيات التي ذكرها رسول الله ﷺ في معرض بيانه لعالم البرزخ وما بعد الموت، وما يلقاه المؤمن والكافر في ذلك، وهذا جزء من الحديث الطويل للبراء بن عازب، والذي أورده جل المفسرين في تفاسيرهم ليستقيم لهم فهم هذه الآية وغيرها من الآيات المخبرة عن حقائق الغيب: "وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون : فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق"﴾[1]

- وكذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ﴿يَعْنِي شِدْقَيْهِ﴾ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا

1 - تفسير ابن كثير.

ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وهو الحديث الذي أورده المفسرون في بيان المعنى في هذه الآية.

3- نسخ الأحكام أو تأكيد النسخ:

كما هو شأن الحديث الشريف الذي يفيد في تأكيد نسخ الوصية للوالدين والأقربين ويسعف في درء الخلاف وتضعيف القول بأن هذه الآية: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين﴾ محكمة وليست منسوخة، حيث قال النبي ﷺ: "إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث".

4- تأكيد أحكام وحقائق القرآن:

حيث تكون السنة مقررة ومؤكدة توجيها سلوكيا أو قيمة أخلاقية أوحكما جاء في القرآن فتعضد الدليل القرآني وتؤيده، مثال ذلك:

- تأكيد قول النبي ﷺ بقوله: "اتقوا الله في النساء، فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله"، للآية الكريمة: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾، وهو الحديث الذي يلزم استحضاره إضافة لأحاديث أخر لتفسير الآية وحسن فهمها وفهم مستلزماتها، كما وردت أحاديث عدة تبين هدي النبي ﷺ مع نسائه وحثه المسلمين على الإحسان للنساء، وكل ذلك بيان للمعاملة الحسنة والمعاشرة بالمعروف التي أمرنا الله بها في الذكر الحكيم.

- قول رسول الله ﷺ: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتم عليه"، ثم قال اقرأوا إن شئتم﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾.

- وقوله ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة فهو يعمل لها، ومن كان من أهل الشقاوة فهو يعمل لها"، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق

بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى"﴾[1].

5- إنشاء الأحكام في ظل كليات القرآن وتأكيدها بمبادئ تشريعية:

وقد تكون السنة منشئة حكما سكت عنه القرآن، فيكون الحكم الشرعي ثابتا بالسنة ولا يدل عليه نص من القرآن، وقد قال بعض أهل العلم أن السنة ليست منشئة للأحكام وإن بدا الأمر كذلك، فهي تصدر عن كليات القرآن وإن استقلت بالتشريع أو الابتداء بالبيان، وهذه صور للاستقلال المستند لكليات القرآن وروحه أو مؤسسة لمبادئ تشريعية مؤكدة لهذه الكليات القرآنية:

- حديث: "لا ضرر ولا ضرار"، الذي يوافق روح التشريع القرآني القائم على درء الضرر المادي والمعنوي عن الإنسان عامة، ويستخلص ذلك استقراء من أحكام وتشريعات القرآن الكريم.
- حديث "يسروا ولا تعسروا"، الذي يؤكد مبدأ اليسر الذي تقوم عليه أحكام القرآن وتجسده تصرفات النبي ﷺ، الذي كان هديه وسلوكه وتدبيره قائما على التيسير ورفع المشقة والحرج.
- حديث رسول الله ﷺ: "يحرم من الرضاع ما يحرم بالنسب"، الذي وضع شروطا جديدة للمحرم من النساء تتوافق مع حكمة الشريعة وروح التشريع القرآني.
- وحديث علي ﵁: "أنَّ النبي ﷺ قضى بشَهادة شاهد واحد، ويَمين صاحب الحق"، وهو إضافة تشريعية تراعي مبدأ العدل والقسط بين الناس في أحوال وظروف خاصة.

وكل هذه الأحاديث مجسدة محققة لبعض الكليات والمقاصد والمحاسن الشرعية ومبينة لها وهي تستحضر عند المفسرين في تفسير الآيات المتعلقة بموضوعها.

1 - بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة، 1988م، ج.4، ص.166.

6- بيان المجمل:

إذ قد يتوسل المفسرون بالسنة المبينة والمفسرة للمجمل في القرآن الكريم:

- مثل بيان أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وذلك في الحديث الذي رواه علي ﷺ، قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: "شَغَلُونَا عَنْ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ".

- بينت مقدار الزكاة فيما سقت السماء التي أمر بها الله عز وجل في قوله: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾، حيث قال النبي ﷺ: "فيما سقت السماء العشر".

- وبينت السنة الفعلية حد القطع إلى الكوع في قوله تعالى:﴿ "السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله﴾ .

- وبينت السنة القولية الغموض في قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ بأن المقصود منه الاقتصار على أربع، عندما أمر الصحابي الذي أسلم بقوله وتحت يده أزواجا عدة: "أمسك منهن أربعا".

- وبينت أوقات الصلاة في قوله تعالى: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ وقوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾، وكذا فرضها، ونفلها، وعدد ركعاتها، وسرها، وجهرها، في أحاديث كثيرة، كحديث المسيء صلاته وغيرها من أحاديث الباب.

7- تخصيص العام:

كما قد تكون السنة النبوية مخصصة لعموم القرآن الكريم:

- كتخصيص عموم قوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ بأحاديث دالة على عدم جواز قتل المرأة والصبي والعاجز، كما ورد في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ، أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ، فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَقْتُولَةً؛

فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، ووجوب الدعوة قبل القتال، روى ابن عباس ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "ما قاتل رسول الله ﷺ قوما قط حتى يدعوهم"، وجاء عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: "كان النبي ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا ثم قال: اغزوا باسم الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا أنت لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال أو خصال، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم".

- وتخصيص عموم عقوبة الزاني في قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رحمة في دين الله﴾ بالرجم في حق الزانية المحصنة والزاني المحصن، تشديدا للعقوبة واعتبارا لوضعهما، قال رسول الله ﷺ: "البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم".

- وكذا تخصيص قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير﴾، وذلك بحديثه صلى الله عليه وسلم: "كل ذي ناب من السباع فأكله حرام".

- وحديث: "لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها" وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ التي تفيد جواز الزواج بغير المنصوصات في الآية السابقة، واستواء التفسير والفهم للآيتين لا يتم إلا باستحضار هذا الحديث وغيره في الموضوع.

8- تقييد المطلق:

كما قد تكون السنة مقيدة لمطلق ما ورد في كتاب الله عز وجل، مثال ذلك:

- تقييد قوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾، حيث قيد الدم بالمسفوح، أما غير المسفوح فلا إثم فيه، وهذا التقييد يستفاد من فعله ﷺ وأكله اللحم بدمه

غير المسفوح الموجود بالعروق والأوردة والشرايين، وأكله الكبد والطحال وهي دم، وكذا بقوله: "أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالجراد والحوت، وأما الدمان: فالكبد والطحال".

9- تبيين الظاهر المحتمل:

كما قد تكون مبينة لظاهر الكتاب الذي يفيد معنى ليس هو مراد ومقصد الشارع، ولا يفهم ذلك إلا تأويلا، مثال ذلك:

- ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهو معنى ظاهر يفيد أن الله عز وجل يحاسب الناس على ما حدثوا به أنفسهم وما أخفوه في بواطنهم من شرور، وهذا ما استثقله الصحابة الكرام، وتأويل هذا الظاهر قوله ﷺ: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم"، إضافة إلى النسخ الوارد في أواخر سورة البقرة بعد استجابة الصحابة لهذا الأمر وقولهم: "سمعنا وأطعنا".

"النص" بيان قرآني لا يحتاج إلى بيان.

قد يلمس القارئ نوعا من التناقض بين هذه القاعدة وبين قاعدة سابقة جاءت جوابا عن سؤال: هل يحتاج البيان القرآني إلى بيان؟ أو هل يحتاج الخطاب المبين إلى بيان؟ فقلنا بضرورة البيان بسبب الإجمال وتعدد المعاني وغرابة اللسان، وصغنا من ذلك قاعدة تفسيرية، وهي أن خطاب القرآن يحتاج إلى بيان رغم أنه خطاب مبين، وهنا نقول أنه لا يحتاج لذلك، وتفسير هذا في كون الخطاب تعددت مستويات ظهوره ووضوحه فيه، إذ نجد البين من الكلام الذي يظهر معناه من ظاهره، ومنه الذي يحتمل معان عدة يتوصل لها بالتأويل، وهذا ما حدا باللغويين والأصوليين لتمييز النص عن غيره من مستويات وضوح الدلالة في الخطاب القرآني، وهكذا فمقصودنا بالخطاب القرآني الذي لا يحتاج إلى بيان: هو تلك الرتبة من مستويات الدلالة التي سماها الأصوليون نصا، فهي بينة بذاتها لا تحتاج بيانا ولا تبيينا.

وقد ذكر ذلك الشافعي رحمه الله رائد التأصيل لعلم أصول التفسير وأصول الفقه، وما أصول الفقه إلا وجه خاص من أصول التفسير والتأويل، مطلبها إعداد العدة المنهجية التأويلية والاستدلالية لاستخراج الأحكام الشرعية، لكن هذه العدة التأويلية ترتقي لأن تكون منهجا تأويليا وقانونا تفسيريا لخطاب الوحي قرآنا وسنة في التشريع والعقيدة والأخلاق والأخبار، حيث بين هذا السَّبَّاق لأصول التفسير، أن للبيان في شرعة الإسلام ثلاثة أوجه هي:

1. بيان القرآن.
2. بيان السنة.
3. بيان الاجتهاد.

وهي التي يمكن استخلاصها من التقسيم الخماسي لأوجه البيان التشريعي عند الشافعي:

1. بيان لا يحتاج إلى بيان وهو ما أبانه الله لخلقه نصا، مثل جمل فرائضه كالصلاة والزكاة وكذلك تحريم الفواحش.

2. بيان في بعضه إجمال فتكفلت السنة ببيان ما يحتاج منه إلى بيان، مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها...

3. بيان ورد كله في صورة المجمل و قد تولت السنة تفصيله، مثل ما هو الأمر في تفصيل القول في شأن الربا المحرمة نصا والمبينة بالسنة القولية.

4. بيان السنة وهو ما استقلت به هي نفسها، ومن الواجب الأخذ به لأن الله قد فرض في كتابه طاعة رسوله ﷺ والانتهاء إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل.

5. بيان الاجتهاد ويؤخذ بالقياس على ما ورد فيه نص من كتاب أو سنة، وهذا فرض الله على خلقه في طلبه وابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم[1].

ومن ذلك يمكن أن نستخلص صورا للبيان القرآني وهي أربعة:

1- بيان في القرآن لا يحتاج إلى بيان وهو ما أبانه الله عز وجل لعباده نصا.

2- بيان القرآن للقرآن: أي تفسير القرآن بالقرآن بعرض بعضه على بعض.

3- بيان السنة للقرآن وهو ما بينه الرسول ﷺ من مجمل القرآن، سواء كان الإجمال فيه جزئيا أو كليا، وذلك بفعله وقوله وتقريره وتركه إن كان لمعلوم مقدور عن قصد.

4- بيان الاجتهاد التأويلي: حيث يجتهد العقل المسلم لتبين مراد الله في خطابه معملا مبادئ التأويل بحسب ما يتطلبه المقام.

1. الشافعي، الرسالة، ص.21. 22.

ويعد النص هو ذلك المقام من الخطاب والضرب من الدلالة الذي لا يحتاج إلى بيان والذي أبانه أو بينه الله عز وجل لخلقه نصا، أي بأسلوب جلي ولغة واضحة وعبارة معبرة وخطاب مفيد لا احتمال فيه للتأويل ولا للانتقال من ظاهر القول إلى باطنه، وهذا يدفعنا لصوغ قاعدة تابعة **"يؤخذ بالنص كما هو من غير سعي للتأويل"** انطلاقا من القاعدة الأم: **"النص بيان قرآني لا يحتاج إلى بيان"**.

فما النص وما المقصود به؟ وما حده الدقيق عند علماء المسلمين؟

إن النص في الاصطلاح الأصولي يختلف عن معناه العام عند اللسانيين وأهل اللغة، حيث يفيد الخطاب المكتوب، لكنه في الاصطلاح العلمي الدقيق عند علماء الأصول يفيد معاني الوضوح وتمام البيان، يقول الباجي مبينا ذلك وموضحا العلاقة بين الدلالة الاصطلاحية والدلالة اللغوية ما يلي: "والنص ما رفع في بيانه إلى أبعد غاياته، مأخوذ من النص في السير وهو أرفعه"[1].

وأورد الزركشي في محيطه جملة تعاريف من خلال تتبعه لتطور مصطلح النص عند علماء المسلمين منها[2]:

1. النص في اللغة: الظهور والارتفاع.
2. النص كل خطاب علم ما أريد به من الحكم.
3. النص يسمى ظاهرا، وليس ببعيد، لأن النص في أصل اللغة الظهور.
4. يطلق النص على ما لا يتطرق إليه احتمال وسواء عضده بالدليل أم لا، وقد يكون نصا بوضع اللغة، وقد يكون بالقرينة.
5. النص ما استوى ظاهره وباطنه وأشار بالباطن إلى المفهوم، وإلا فليس للفظ ظاهر ولا باطن في الحقيقة.

1- الباجي، إحكام الفصول في أحكام الأصول، ص.48.

2- الزركشي، البحر المحيط، ج 1، ص.373.

6. النص خطاب يعلم ما أريد به من الحكم سواء كان مستقلا بنفسه، أو علم المراد به بغيره، ولا يسمى المجمل نصا.

ومن هذه التعاريف يمكن استخلاص جملة من الخصائص تميز مصطلح النص منها:

- النص هو ما يفيد معنى واحدا لا يقبل غيره.
- النص هو ما يفيد معنى لا ينصرف الذهن إلى غيره.
- النص هو ما يفيد معنى لا اختلاف فيه بين الناظرين.
- النص هو ما يفيد معنى لا يقبل تأويلا.
- النص هو ما يستوي ظاهره وباطنه في الإفادة.
- النص هو ما يغني تفسيره عن تأويله.
- النص هو ما يفيد العلم والقطع واليقين[1].

إن النص في كتاب الله عز وجل بين ظاهر لا يحتاج إلى بيان سواء كان تفسيرا أو تأويلا؛ حيث التفسير ما يُكتفى فيه بالدلالة أما التأويل فيُنتقل فيه إلى مستويات ومقامات متقدمة من المعاني: المعنى ومعنى المعنى، أو المعاني الخفية التي لا يتوصل إليها إلا بمزيد نظر وتدقيق وبحث عن خفايا الألفاظ والعبارات، والنص يعبر عن المعاني المباشرة في التفسير، ثم بعد ذلك المعاني غير المباشرة الكامنة في ثنايا النص وفي غير المسموع أو فيما يدل عليه اللفظ إشارة، أو تضمنا، أو لزوما، أو اقتضاء.

1. أنظر تفصيل تطور مصطلح النص في المعرفة الشرعية الإسلامية في كتابنا:
سعيد النكر، نظرية النص أو التعدد المنهجي في قراءة النص القرآني، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء صدر بدعم من وزارة الثقافة المغربية، ص.105.21.

ندرة النصوص وتدخل السياق والقرائن لحل الإشكال

وقد اعتقد بعض العلماء دعوى عزة النصوص وندرتها في القرآن الكريم، قال الجويني رحمه الله: "ثم اعتقد كثير من الخائضين في الأصول عزة النصوص"[1]. فالنص الذي لا يحتاج إلى بيان، القطعي في دلالته، غير المحتمل للتأويل، الدال على ما سيق الكلام له، ولا مجال فيه لأي درجة من الاحتمالية، عزيز نادر في القرآن الكريم.

وهذه الندرة عممها هؤلاء الأصوليون حتى على النص النبوي، ولم تقتصر على القرآن بل شملت السنة كذلك، وبلغ التدقيق والتضييق في مفهوم النص إلى أن أصبح قليلا عزيزا معدودا، يقول الغزالي رحمه الله: "ثم قال الأصوليون لا يوجد على مذاق هذا الحد في نصوص الكتاب والسنة إلا ألفاظ معدودة"[2]. وقد حصر هؤلاء هذه الآيات المعتبرة نصوصا حسب شروطهم في قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾، وقوله عز وجل: ﴿محمد رسول الله﴾، وأورد الزركشي أنه: يعز وجود النص إلا أن يكون كقوله تعالى:﴿ "يا أيها النبي﴾.

وقد بلغ الأمر عند بعض العلماء إلى نفي وجود النصوص جملة في الكتاب والسنة، خاصة بشروطه المذكورة، حيث لم يسلم نص من الظنية واحتمال التأويل والمعاني الخفية، وفي هذا يقول أبو محمد بن اللبان الأصبهاني: "لا يوجد النص أصلا"[3].

وبين هذين الرأيين أو الموقفين ﴿عزة النصوص وانعدامها﴾ نجد رأيا ثالثا يقول بكثرة النصوص، ومن بين هؤلاء الجويني رحمه الله الذي بين أن "الغرض بالنص الاستقلال بإفادة المعنى على قطع مع انحسام جهات التأويل والاحتمال، وهذا إن عز حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللغة فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية"[4]. وكذلك

1- الجويني، البرهان في أصول الفقه، ج.1، ص.413 - 414.

2- الغزالي أبو حامد، المنخول، ص.165.

3- الباجي، إحكام الفصول، ص 72.

4- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973م، ج.2، ص.31.

الباجي الذي يقول: "الذي عليه جمهور الناس من أصحابنا وغيرهم أنه يوجد كثيرا (أي النص)"[1]، والزركشي من بين هؤلاء الذين يعتدون بكثرة النصوص، إذ يبين أنه إذا نحن خضنا في باب التأويلات وإبانة بطلان معظم مسالك المؤولين استبان للطالب الفطن أن جل ما يحسبه الناس ظواهر معرضة للتأويلات، فهي نصوص يقول: إن"كل ما أفاد معنى على قطع، مع انحسام التأويل فهو نص"[2]، وكما يبين الجويني فالمعتمد في الخروج من إشكال ندرة النصوص وعزتها هو القرائن الحالية والمقالية، حيث يرد على القائلين بعزة النصوص المتميزة بأعلى درجات الوضوح والقطعية، منها إلى أن ذلك "إن كان بعيدا حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللغة، فما أكثر هذا الغرض مع القرائن الحالية والمقالية"[3].

وهكذا تكثر النصوص بالاستناد إلى القرائن الحالية والمقالية، وقد تكون القرينة نصا أو إجماعا أو اقتضاء عقل، والقرائن الحالية هي التداولية الخارجية المتعلقة بمقام التخاطب وحال المتخاطبين، أما القرائن المقالية فهي المتعلقة بالسياق الداخلي للخطاب، وبالجانب الدلالي فيه، والقائلون بكثرة النصوص يحاولون تجاوز إشكال الندرة والعزة في النصوص من خلال ربط الكلام بأفق اللغة الخطابي حيث تبرز وتفعل عناصر عدة وهي السياق والمقام والقرائن، وهنا تتجلى أهمية التفسير والبيان لكشف العلاقات بين هذه العناصر الفاعلة في الخطاب لفهمه وإدراك معناه.

وبالنظر في هذا التدافع الحاصل حول عزة النصوص وكثرتها يتبين أن النصوص كثيرة في كتاب الله عز وجل، خاصة عند مراعاة القرائن والسياقات التي تدرأ الاحتمال وتوجه المعنى لوجهة محددة، لا يُقبَل غيرها، وأمثلة خطاب النص الذي لا يحتاج إلى

1- الباجي، إحكام الفصول، ص.72.

2- الزركشي، البحر المحيط، ص.376.

3- الجويني، البرهان في أصول الفقه، ج 1، ص.415.

وانظر كذلك للتوسع في فهم القرائن الحالية والمقالية والسياق وكيف تم استعمالها من طرف الأصوليين للخروج من إشكال عزة النصوص، ما أورده الأستاذ يحيى رمضان في كتابه القراءة في الخطاب الأصولي، ص.312-325.

بيان في القرآن الكريم آيات كثيرة تفيد معناها من ظاهرها، ولا تحتمل غيره، ولا تقبل تأويلا ولا اجتهادا، ومن ذلك:

1- بعض آيات الحقائق الإيمانية:

- ﴿قل هو الله أحد﴾، وهي نص في إثبات الوحدانية لله عز وجل.
- ﴿محمد رسول الله﴾، وهي نص في إثبات صفة الرسول للنبي محمد ﷺ.
- ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، وهي نص في تأكيد مصير الموت لكل نفس بشرية.
- ﴿يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك﴾، وهي نص في الأمر بالتبليغ في حق النبي صلى الله عليه وسلم.

2- بعض آيات القيم الأخلاقية:

- ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾، وهي نص في الأمر بغض البصر وحفظ الفرج عن المنكرات.
- ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾، وهي نص في النهي عن الزنا.
- ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾، وهي نص في النهي عن الغيبة.
- ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾، وهي نص في الأمر بالقسط في الميزان وعدم الغش فيه.
- ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾، وهي نص في إباحة الأكل والشرب من غير إسراف.

3- بعض آيات التشريع والأحكام:

- ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب﴾، وهي نص في الأمر بكتابة الدين عند كاتب عدل.

- ﴿وللذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وهي نص في أن نصيب الأنثى نصف نصيب الذكر في الإرث.

- ﴿فاستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾، وهي نص في الأمر باستشهاد شهيدين رجلين، أو رجل وامرأتين إن تعذر الأمر .

- ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾، وهي نص في الأمر بإيتاء زكاة المحصودات عند الحصاد.

4- بعض آيات العقوبات والحدود:

- ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رحمة في دين الله﴾، وهي نص في عقوبة الزنا بجلد مائة.

- ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾، وهي نص في عقوبة السرقة بقطع اليد.

- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهي نص في عقوبة مقترفي جرم الحرابة.

- ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وهي نص في جلد القاذف المتهم غيره بالشبهة دون شهود أربعة، وعدم قبول شهادته.

- ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾، وهي نص في كفارة القتل الخطأ.

وهكذا يكون "النص" أسمى صور البيان والدلالة التي لا تحتاج إلى بيان في كتاب الله عز وجل، وهو معنى اصطلاحي ضيق للتعبير عن صورة في الخطاب بلغت أسمى مقامات الوضوح عبر عنها بما يجسدها لغة وهي كلمة "النص"، وهناك معنى آخر للنص، وهو عموم الكلام المكتوب، حيث يطلق بهذا المعنى العام على الخطاب المفيد المفهوم، سواء كان مكتوبا أو ممكن الكتابة، وإن كان شفويا، إذ يمكن اعتباره نصا باعتبار المآل الممكن، وفي هذا يقول أحد علماء اللسان المعاصرين: النص هو الكلام الذي تم تثبيته بواسطة الكتابة. وبالرجوع إلى التفسير الذي يروم القبض على المعنى في الخطاب وموضوعه الأساس البيان والتبين والفهم لخطاب الوحي، وهذا الفهم لا يمكن أن يتم إلا انطلاقا من كلام الله عز وجل، وهو الخطاب الشرعي والنص المكتوب المجموع بين دفتي المصحف الشريف.

الإضمار في القرآن الكريم

من صور البيان القرآني إظهار بعض المعاني وإخفاء البعض الآخر، بل إن ما يخفيه الخطاب المبين أكثر مما يظهره، وما يحجبه من المعاني أكثر مما يكشفه، معولا في ذلك على ذهن القارئ في إدراك المرادات الخفية، مع سوق موجهات سياقية وقرائن حالية وعلامات مقالية تساعد على فهم الخفي وتقدير المحذوف ووجه الإخفاء ومقتضى الإضمار.

وهكذا فاستحضار مبدأ الإضمار أساسي في تفسير الخطاب القرآني وبيان مرادات الله فيه، إذ لا منفذ للمعنى المضمر إلا بتقدير هذا المحذوف ليستوي المعنى في ذهن القارئ، وهكذا كان من أصول التفسير الأساسية والضرورية ليستقيم المعنى ويستوي الفهم.

والإضمار في اللغة هو الإخفاء والطي للشيء حيث يخفى عن الرائي، ومنه استمد اللغويون والبلاغيون والأصوليون الدلالة الاصطلاحية لهذا اللفظ، حيث الإضمار هو إضمار لألفاظ ومعان وطي لها، حيث لا يكشفها المتكلم في كلامه، لكن المتلقي يفهمها، ومن هنا يمكن تقسيم الإضمار لوجهين أساسيين[1]:

1. إضمار للمعاني دون حذف ألفاظ، وهذا كثير في صور عديدة من صور البيان العربي، والتي تندرج ضمن ضروب الدلالة المتفرعة عن التضمين والاستلزام.

1- من خلال النظر في أوضاع الإضمار اللفظي نجده ينقسم من حيث أنواعه إلى:

- إضمار الحرف الواحد وحذفه.
- إضمار الكلمة الواحدة وحذفها.
- إضمار الجملة الواحدة وحذفها.
- إضمار مجموعة من الجمل.

2. إضمار للمعاني عن طريق حذف ألفاظ وطي جمل حملا للمخاطب على تقدير المحذوفات غير المذكورة في الكلام ليستوي المعنى على سوقه، وهو المقصود بالدراسة هنا.

يقول القرافي رحمه الله في بيان المضمر اصطلاحا: "والمضمر هو اللفظ المحتاج في تفسيره إلى لفظ منفصل عنه إن كان غائبا أو قرينة تكلم أو خطاب، فقولنا إلى لفظ احترازا من ألفاظ الإشارة، وقولنا منفصل عنه احترازا من الموصولات، وقولنا قرينة تكلم أو خطاب ليدخل فيه ضمير المتكلم والمخاطب"[(1)].

وينقسم الإضمار استنادا ألى مرجع المضمر أقساما أربعة هي:

1. إضمار باستعمال ضمير يعود على مذكور في الكلام.

2. إضمار باستعمال ضمير يعود على غير مذكور في الكلام.

3. إضمار كامل لشيء مسوق في الكلام، أي مذكور فيه.

4. إضمار كامل لمعنى غير مسوق في الكلام، لكن السياق يدل عليه.

وتأويل كل ذلك وتفسيره بغية الظفر بمراده، يتطلب قرائن مقالية وحالية تساعد على فهم المعنى المراد، كما أن فهم بعض أنواع الإضمار تتطلب شروطا لغوية وثقافية ومعرفية يلزم توفرها في القارئ للخطاب، فقول الله عز وجل: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، مضمرا لفظ القرآن، لا يمكن لغير العربي اللسان المنتمي لأهل الأديان المدرك لتنزل الوحي من السماء أن يفهم ذلك المضمر الذي لا يستوي المعنى إلا بتقديره.

ومن ذلك يمكن أن تؤول الأنواع الأربعة المذكورة آنفا إلى وجهين أساسيين باعتبار مرجع الإضمار وهما:

- إضمار لمسوق في الكلام.

1- القرافي، شرح تنقيح الفصول، ج.1، ص.34.

- إضمار لغير مسوق في الكلام مرجعه ومصدره إحدى ثلاث:

- مما تواطأ عليه الناس وتعارفوا عليه.

- من المعتقد المشترك.

- من المدركات المشتركة.

وهكذا يلزم وجود مخاطب عاقل مدرك مميز رابط لأول الكلام بآخره، متوفر على معرفة مسبقة بما تعارف عليه المتخاطبون، مشتركا معهم في الأصول الثقافية والاجتماعية والاعتقادية، ليتمكن من فهم الكلام وإدراك مراداته الخفية، أما الظاهرة المنصوص عليها فلا تحتاج إلا إلى معرفة لغوية أساسية.

وفي هذا يقول القرافي رحمه الله: "المضمر مأخوذ من الضمور لأنه مختصر قليل الحروف بالنسبة إلى الظاهر، أو من الضمير لأنه كناية عما في الضمير وهو الإسم الظاهر أو مسماه، ولا بد له من مفسر، فقد يكون لفظا منفصلا عنه نحو: زيد مررت به، وهذا هو الأصل، ثم يقوم مقامه أمور أخر تصيره معلوما مثل قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، ولم يتقدم للقرآن الكريم ذكر بل كان معلوما بالمحاورات المتقدمة، وكقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾، ولم يتقدم للأرض ذكر لكنها معلومة بالسياق، وكقوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾، ولم يتقدم للشمس ذكر"[1].

والقرائن اللفظية المساعدة على إدراك المضمر إما ألفاظ مفردة، أو جمل محددة أو ضمائر دالة مستقلة أو مع إشارة، أو مفهومة من سياق الكلام، وفي ذلك يقول القرافي رحمه الله: "أما الموصولات ﴿أي الموصولات من المضمرات﴾، فلا بد أن تتصل صلاتها بها نحو: مررت بالذي قام وبمن قام أو بما قام، وأسماء الإشارات هذا وتلك

1- القرافي، شرح تنقيح الفصول، ج.1، ص.34.

وهؤلاء وأولاء لا بد معها من مفسر، وأصله أن يكون فعلا من إشارات الأعضاء أو غيرها"[1].

وبين أن ما ذكر خاص بضمير الغائب، أما غيره من ضمير المتكلم والمخاطب فيقول عنه: "فالمحتاج لما تقدم إنما هو ضمير الغائب نحو: "هو وهي وهما وهم وهن، وأما المخاطب نحو: أنت وأنتِ وأنتما وأنتم وأنتن، والمتكلم نحو: أنا ونحن فلا يحتاج شيء من هذين القسمين إلى معرفة لفظ ظاهر، بل من قال لك: أنا، عرفتَه وإن لم تعرف اسمه، وكذلك من قلت له: أنت، انتظم الكلام بينكما وإن لم تعرف اسمه، بل قرينة التكلم والخطاب كافية في ذلك، فلذلك نوعت المحتاج إليه في بيان المضمر إلى لفظ أو قرينة"[2].

ولا بأس من الإشارة أن الإضمار في الألفاظ مبدأ عام وشمولي يضم أوجها عده وله صور جمة في الأساليب البلاغية والضروب البيانية والأوضاع النحوية والأوجه الدلالية الأصولية، مثل المجاز والحذف والتعريض والفحوى والمفهوم والاقتضاء وغير ذلك من صور البيان وأوجه التأويل التي أساسها الإضمار.

- صور من الإضمار في القرآن الكريم:

وهذه صور للإضمار في كتاب الله عز وجل، لا يستقيم فهمها إلا باستحضار هذا المبدأ التأويلي والأصل التفسيري:

- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، فيها إضمار لمسوق في الكلام وهو القرية، وإضمار للفظ دال على المقصود وهو "أهل القرية".

1- القرافي، شرح تنقيح الفصول، ج.1، ص.34.

2- القرافي، شرح تنقيح الفصول، ج.1، ص.34.

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، فيها إضمار للفظ "قل"، وفي ذلك أسرار بيانية وقف عندها أهل التأويل، لأن إضمار هذا اللفظ في مثل هذه الوضعيات التخاطبية في القرآن الكريم خاص بهذا الموضع.

- ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، حيث حذف وأضمر حرف في كلمة اسطاعوا، والزيادة أو النقص في المبنى زيادة أو نقص في المعنى كذلك، وعليه قال المفسرون، أن هذا الإضمار دلالة على أن مشقة استظهار السد والقفز فوقه أيسر وأقل من مشقة نقبه وخرقه، وإن كانوا لم يستطيعوا الجميع.

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، حيث أضمر الخطاب لفظ الإنسان وتقديره "إني جاعل في الأرض الإنسان خليفة"، ويبدو أن الملائكة من خلال سياق الحوار لها معرفة مسبقة بهذا المخلوق لأنها ذكرت بعض صفاته.

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، حيث أضمر لفظ أقوالهم الذي يسمح به السياق في لفظ "قلوبهم" وهو يريد "تشابهت أقوالهم"، فكان المعنى مجازا بليغا يفيد أن تشابه الأقوال دليل على تشابه معتقد القلوب، وأن القلب سلطان الجوارح وفساد الأقوال والتصرفات من فسادها، وكل هذه المعاني لا تستقيم إلا بتقدير المضمر وحمل العبارة على المجاز.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾، حيث أضمر في الكلام العذاب بالنار وعبر عنه بالخلود فيها، ويفهم هذا المضمر من سياق

الوعيد والتوعد والتهديد، وكذا من السياق المقالي حيث اللعنة تستوجب الغضب والغضب يستوجب العقاب وشر العقاب النار وأقصاه وأقساه الخلود فيها.

- ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً﴾، أي فضرب فانفجرت منهِ فاكتفى بالمسبب الذي هو الانفجار عن السبب الذي هو الضرب[1].

- ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ ، فذكرت في الاستفهام الجملة الأولى دون الثانية، وتقدير الآية: أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه؟ ويدل على المحذوف المضمر سياق قوله تعالى ﴿فويل للقاسية قلوبهم" ﴾[2].

- ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾، حيث ورد الإضمار على شاكلة نفي وإثبات، وتقديره: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل، ويدل على المحذوف قوله تعالى: ﴿أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ [3].

- ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وقال الملك ائتوني به﴾ ، حيث الإضمار هنا عبارة عن حذف جملة من الجمل المفيدة تقديرها: فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا لها أو فصدقوه عليها، وقال

---

1 . إبن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م، ج.2، ص.81.

2 . إبن الأثير، المثل السائر، ج.2، ص.81.

3 . إبن الأثير، المثل السائر، ج.2، ص.81.

الملك ائتوني به. والمحذوف المضمر هنا دلت عليه دلالة ظاهرة حاشيتا الكلام، فإذا أبرز طرفاه، وحذف وسطه ظهر المحذوف دلالة الحاشيتين عليه[1].

- ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين، قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصرا إن شاء الله آمنين﴾ فقد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها: ثم إنهم تجهزوا وساروا إلى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه[2]، والدال على هذا الكلام المضمر حاشيتا الكلام.

- ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ ، في هذا محذوف وهو جواب الاستفهام، لأنها لما قالت: ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ ، احتاج ذلك إلى جواب منتظم بما بعده من رده إلى أمه، والجواب: فقالوا نعم، فدلتهم على امرأة، فجيء بها وهي أمه، ولم يعلموا بمكانها فأرضعته وهذه الجملة الثانية أي قوله تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه﴾ تدل على المحذوف، لأن رده إلى أمه لم يكن إلا بعد رد الجواب على أخته، ودلالتها إياهم على امرأة ترضعه، ويكفي هذا الموضع وحده لمن تبصر في مواقع المحذوفات وكيفيتها.

- ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت يأيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم﴾، وفي هذا محذوف مضمر[3] عبارة عن جمل عدة تقديرها: فأخذ الكتاب وذهب به فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت يا أيها الملأ.

1 . إبن الأثير، المثل السائر، ج.2، ص.82.

2 . إبن الأثير، المثل السائر، ج.2، ص.82.

3 . يجتمع الإضمار والحذف أحيانا كثيرة، حيث الإضمار للمعاني والحذف للمباني.

- ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا. قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا﴾ ، هذا الكلام قد حذف منه جملة دل عليها صدره وهو البشرى بالغلام وتقديرها ولما جاءه الغلام ونشأ وترعرع قلنا له: يا يحيى خذ الكتاب بقوة.

- ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى، قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري، قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ ، وتقدير المضمر هو: فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحالة من عبادة العجل قال لأخيه هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني.

- ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾، وفي هذا محذوف وتقديره: فلما جاء به قال نكروا لها عرشها لأن تنكيره لم يكن إلا بعد أن جيء به.

- ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾، حيث كان إنكار الإضمار هنا حجة لمنع أكل الخيل، لأن القرآن الكريم نص على منافعها ولم يذكر فيها الأكل، فالنصية هنا أثبتت التحريم، أما الإضمار فقال أصحابه بغير ذلك، وحمل الكلام على النصية منع الإضمار.

- تحريم الفعل المتعلق بالمكلف وليس تحريم العين في ذاتها، وذلك إضمارا في الآيات الكريمات: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ مضمرا أكلها، و﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ مضمرا الاستمتاع[1].

تنبيه:

للتوسع أكثر في الإضمار يرجى الرجوع لكتب البلاغة والنحو والأصول، وهي ليست من كتب التفسير ولا أصوله، لكنها تسعف بالكثير في ذلك: مثل ما كتبه السكاكي وابن الأثير والقزويني وابن قتيبة والتفتزاني.

1 . التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص.59.

اللزوم وأدواره في فعل التأويل

بيانية كلام القرآن المحكم ومقتضى الحال يستدعيان غالبا العدول بالمعاني عن أصل وضعها اللغوي إلى معان غير مباشرة تابعة أو لازمة لها.

إن السؤال الأساسي الذي ظل يحرك أذهان المفسرين لكلام الله عز وجل هو كيف يتم البيان في خطاب القرآن؟ وما هي قواعده وطرقه، فدفعهم ذلك إلى إبراز وإظهار خصائص الكلام في التعبير عن المراد وبيان المعاني، مقرونة تلك الإبانة بصور جمالية ذات تأثير في النفوس وإمتاع للأذهان ورياضة بديعة للأفكار، ليكون ذلك وسيلة لقبول مضمون هذا الكلام والاقتناع به، وحمل المتلقي على العمل بمقتضاه.

ولا يتحقق ذلك إلا بطرق في الكلام تستعمل أحيانا الألفاظ وفق أوضاعها اللغوية ذات الدلالات المباشرة، وقد تستعملها أحيانا وفق دلالاتها غير المباشرة، وهذا ما أعطى اللغة العربية: لغة الخطاب الشرعي اتساعا وانفتاحا في الدلالة على المعنى، وهو ما يكثر استعماله فيها لما في الطرق غير المباشرة في الكلام من فعالية في البيان مقارنة بالطرق المباشرة، فالخطاب باللغة العربية يحتال لبيان المراد باستعمال الألفاظ في دلالاتها غير المباشرة.

إن قراءة خطاب الوحي وفهم معانيه وتدبر عبره واستخراج مراداته تحتاج إلى عقل ناظر وقلب متدبر ومنهج سليم وأدوات تأويلية وقواعد تفسيرية لائقة، وذلك للنهل من كتاب الله والاستفادة من خيراته وكنوزه، وهذه الأدوات هي التي يجمعها قانون التأويل أو أصول التفسير، وكثرة هذه القواعد والمبادئ تدعو لانتقاء كليها وانتقاء الجامع منها، ومنها هذه القاعدة العامة التي ارتأينا صياغتها بشكل مجمل في هذه العبارة الكلية: **"بيانية كلام القرآن المحكم ومقتضى الحال يستدعيان غالبا العدول بالمعاني عن أصل وضعها اللغوي إلى معان غير مباشرة تابعة أو لازمة لها"**، ويفيد ذلك أن الخطاب القرآني يروم تحقيق مطالب ثلاث، وهي:

- مطلب البيان.

- ومطلب الإحكام، ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ .

- ثم مطلب مراعاة مقتضى الحال.

وكل هذه المطالب تستدعي أحيانا كثيرة العدول عن معاني الألفاظ في أصل وضعها اللغوي إلى معان أخرى غير مباشرة، وقلنا هنا الوضع اللغوي تمييزا له عن الحقيقة، لأن الوضع ما هو إلا وجه من أوجه الحقيقة، التي تتنوع بناء على مصدرها، فهي إما وضعية أو عرفية أو شرعية، وقلنا المعاني المباشرة، التي تتعدد صورها وأوجهها فهي إما ضمنية في اللفظ أو تبعية أو لازمة عنه، وقد استعملنا في هذه "القاعدة الأصل" لفظ "غالبا"، لأن الانتقال بالألفاظ من دلالتها الوضعية إلى غير ذلك لا يكون دائما، لأن خطاب القرآن استعمل كثيرا المعاني الأصلية للألفاظ، لكن الغالب في استعمالاته الدلالات غير الأصلية وغير المباشرة، لأنها مزينة للخطاب مكثرة للمعاني مستحسنة في الذوق الأدبي للمخاطبين.

وهذه أمثلة تبين عدول خطاب القرآن عن أصل الوضع اللغوي وإرادة معان ضمنية أو تبعية أو لزومية تحقيقا لمطالب البيان والإحكام ومراعاة مقتضى الحال:

- قال الله عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا، إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فاستعمل لفظ الفراغ الدال على الخلو الحاصل في الأمكنة والآنية والأشياء، للتعبير عن حال الهلع والخوف والاضطراب والحزن والارتياب، وهي كلها معان ما كان بالإمكان التعبير بدقة عنها إلا بواسطة هذا اللفظ، وما كان ليحل غيره في محله بنفس القوة التعبيرية والجمالية التصويرية، ولتستبدل اللفظ بغيره مما ذكر، فستفاجأ باضطراب المعنى وانفراط عقد الإحكام، واللفظ استعمل في غير ما أريد به في أصل وضعه اللغوي ليعبر أبلغ تعبير ويصور الحال أحسن تصوير، معبرا باللازم وهو الفراغ الوجداني على الملزوم وهو الهلع والخوف والشوق.

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾، ومعناه في قلوبهم شك، حيث وصف الله شكهم بالمرض، الدال في أصل الوضع اللغوي على علة الجسد وآفة البدن، لكن المراد هنا داء القلوب ومرض النفوس، وهو أشد خطرا وأكثر فتكا، فكان العدول في هذا اللفظ عن معناه الأصلي غاية البيان ومنتهى الفصاحة والجمال وأسمى مقامات التصوير البياني لسوء حال الكفار، فتم التعبير بالملزوم وهو مرض القلوب عن اللازم وهو الشك.

- وقال تعالى: ﴿والعاقبة للتقوى﴾، حيث تضمنت العبارة لفظين مستعملين في غير معاني وضعهما اللغوي، فالعاقبة تفيد المصير والخاتمة والجزاء، وهي قد تكون حسنة وقد تكون غير ذلك، أما التقوى فهو صفة تفيد اتقاء الشيء والاحتراس والتحفظ منه، وكلا المعنيان غير مقصودان لذاتهما، بل المراد ما تدل عليه العبارة المركبة من معان ضمنية، نتجت عن اجتماع اللفظين في سياق معين جعلهما يفيدان معان جديدة، فالعاقبة هنا بحسب السياق تفيد الحسنة، والتقوى هنا دلالة على المتقين، وبهذا تفيد العبارة:

- خبرا فيه إبهام يستدعي إعمال النظر لتبين المراد.

- مجازا مركبا: يفيد معنى والفوز للمتقين.

- إنشاء: عبارة عن أمر ضمني للعباد بالتزام التقوى والحرص عليه لأنه طريق للفوز والفلاح وحسن العاقبة.

وبالنظر في كتاب الله عز وجل نجد أن المعاني منها القريبة والبعيدة، وهي متفاوتة في درجاتها، ومقامات الذهن في الظفر بها، وأغلبها عبارة عن متلازمات، يلزم بعضها عن البعض الآخر، وهذا ما جعل العلماء يهتمون باللزوم، باعتباره خاصية وسبيلا للتخاطب، وكذا لكونه مبدأ تأويليا وأصلا تفسيريا.

واللزوم يفيد دلالة اللفظ على لازم معناه وإن لم يكن مسوقا لإفادته، أي سواء قصد ذلك المعنى فيه أو لم يقصد، كدلالة لفظ السقف على الحائط، وهكذا فهو

ينقسم إلى مستلزمات قبلية وأخرى بعدية، الأولى مؤسسة للخطاب والثانية منبنية عليه، والملاحظ أن المعاني تتناسل استجابة لمبدأ التلازم الذهني، وهذا ما يبينه السكاكي، حيث إن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية وهي: الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه، جاعلا من الملازمات بين المعاني مرجعا وأساسا لعلم البيان، وهي تكون على وجهين:

- إما انتقال من ملزوم إلى لازم، ونجده في المجاز، كقولنا "زيد أسد" والمراد لازمه وهو شجاعة زيد.
- انتقال من لازم إلى ملزوم، ونجده في الكناية، كقولنا "زيد كثير الرماد" للدلالة على ملزومه وهو الجود و إكرام الضيف الذي يلزم عنه كثرة الرماد بكثرة الطبخ للضيوف[1].

إن اللزوم أساس لصوغ العبارة في القرآن الكريم، وخاصية من خصائص البيان فيه ومدخل لفهم معانيه، وهو أساسي في التأويل، ولذلك اهتم علماء البلاغة والأصول بدلالة اللزوم أو الاستلزام الدلالي، وكان من فروعه وتجلياته في باب الدلالة أنواع من الدلالات اللزومية: كدلالة الإشارة ودلالة الاقتضاء ودلالة النص وفحوى الخطاب ودلالات المفهوم وبعض أنواع دلالات المنطوق.

هكذا أصبح اللزوم أساسيا في استخراج مدلولات آيات الأحكام وقواعد التشريع ومبادئ الشرع، ضروريا في فهم عبر ومعاني القيم والأخلاق القرآنية، لازما في تأويل آيات الحقائق الإيمانية، حاضرا في المعاني العقدية والحقائق الإيمانية، إذ تذكر العبارة ويراد لوازمها المترتب بعضها عن البعض الآخر، ولم يصرح القرآن بكل الحقائق، بل ترك للذهن البشري الكشف عن المعاني الخفية التي تستلزمها آيات العقائد.

1 . سعيد النكر، المنهجية الأصولية والبحث البلاغي.

ومبحث اللزوم مشترك بين فنون عدة، خاصة منها علوم التأويل والفهم والبحث عن المعاني التشريعية والأدبية والعقدية والأخلاقية، فوجدناه حاضرا في المنطق واللغة والبلاغة والأصول، وهي العلوم المنهجية البيانية للخطاب الشرعي.

وهذه صور للتلازم في المعاني القرآنية، والتي من اللازم استحضارها في تأويل آي القرآن الكريم ليستوي الفهم ويستقيم المعنى:

- يقول الله عز وجل: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾، دالة لزوما على وجوب الولي في الزواج، بمعان يترتب بعضها على بعض تلازما، فإذا كان محظورا على الولي منع المطلقة طلاقا رجعيا من التصالح مع زوجها والتراضي معه شرعا وعرفا والرجوع إليه، فهذا يؤكد اعتبار الشارع لدور الولي في شؤون المرأة وإناطة مصلحتها به، وإذا كان القرآن قد منع الإعضال على الولي، فهذا يستلزم تأكيد دوره في النظر في شؤون المرأة المطلقة، وذلك يكون من باب أولى عند الزواج بداية، حيث جعل أمر البكر بيد وليها، لينظر في مصلحتها العاجلة والآجلة.
- ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، هذا تعليل لقوامة الرجل على المرأة، وإفادة معنى لازم وهو وجوب النفقة على الرجال دون النساء.
- ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾، حيث يستلزم لفظ "له" أن النسب للأب وليس للأم.
- ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾، وهذا يستلزم عظمة مهمة التبليغ والبيان مع أن الصفة منسوبة للقول، لكنها تستدعي معان مرتبطة بمبلغه وحامله إلى الناس، كما يستلزم ذلك ثقل وعظمة مضامينه من أوامر ونواهي تعبد الله بها عباده،

وأغلبها فيه مشقة تستثقلها الأنفس، يقول الزمخشري رحمه الله: "ويعني بالقول الثقيل ما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين".

- ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾، التي تستلزم حرية مطلقة وإذنا عاما في التمتع بملذاتها وخيراتها.

- ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي﴾، في ذلك معنى مستلزم وهو شكر النعمة لأن ذكرها يستلزم معرفتها وإدراك قيمتها وقيمة المنعم وهذا يستلزم الشكر.

- ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به﴾، وفي ذلك دعوتهم للإيمان وعدم المبادرة للكفر والمسارعة له ﴿أول كافر به﴾، والأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، كما أن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده، وهذا كله يستلزم معنى في الآية وهو: بادروا إلى الإيمان وسارعو له بدل المسارعة لغيره.

المجاز أساس في بيانية الخطاب القرآني، ضرورة في تأويله وفهمه

إن النص عامة لا يمكن أن يفهم وأن يدرك معناه إلا بواسطة القراءة، فهي ولادة جديدة للنص، أو ولادة ثانية له، فالقراءة هي التي تخرج النص من العدم إلى الوجود، ولا نص ولا فهم من غير تأويل وبدون قراءة، والقراءة لا تفيد فقط تلاوة الكلمات والتلفظ بها، بل هي نفاذ لما بين السطور وكشف عن المعاني من وراء المسطور.

وإذا ما تجاوزنا النص بمعناه الدقيق في خطاب القرآن، وهو قليل عزيز، وجدنا أنفسنا أمام المعاني غير المباشرة: الضمنية واللزومية والتبعية، وهكذا فأغلب المعاني في القرآن الكريم غير مباشرة، وعلى رأسها المجاز، فإن الأصل في التفسير حمل الألفاظ على حقيقتها إلا إن احتفت بها قرينة صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي، والحقيقة اللغوية مرجحة على المجاز اللغوي، وحمل الكلام على حقيقته أولى من حمله على مجازه، كما أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية إلا بوجود قرينة دالة على العكس، وهذه كلها قواعد وأصول تفسيرية للكلام العربي عامة وللخطاب الشرعي بشكل خاص، حيث المجاز واقع في القرآن والسنة، وأساسي في التأويل العقدي والفقهي واللغوي في القرآن الكريم، فالمجاز لا بد من استحضاره في استخراج الأحكام الشرعية والحقائق الإيمانية والمعاني الأدبية من القرآن الكريم، والتأويل المجازي عبارة عن قياس واستدلال عقلي ينتقل فيه الذهن من مقام إلى مقام عن طريق اللزوم.

غلبة الظنية في آي القرآن وصيانة مطلق التأويل بقواعد التبين وأساليب البيان

1- غلبة الظني على القطعي في القرآن الكريم وتعدد التأويل ونظام ذلك:

إن الظني من الدلالة في الخطاب الشرعي هو سر اجتهاد العقول البشرية في كشف المرادات، فلولا الظني في الكتاب والسنة لما ظهرت الاجتهادات الفقهية والتأويلات الكلامية والعلوم البيانية من نحو وأصول وبلاغة، والتي كان مجال

اشتغالها تلك الفسحة المعرفية التأويلية التي مكن منها الاتساع الدلالي والانفتاح في المعاني، وهي خاصية بيانية في خطاب الوحي ناتجة عن قلة النص وغلبة الظاهر، وقلة المعنى المباشر وغلبة المعاني غير المباشرة. وإن الناظر في كتاب الله عز وجل والمدقق للنظر في آياته ليقف أمام حقيقة، لا وجه لمداراتها ومواراتها وإخفائها، وهي غلبة الدلالات الظنية في الخطاب القرآني، وقلة، بل وعزة وندرة القطعي فيه، وذلك أن جل آيات القرآن الكريم بما فيها النصوص محتملة لتأويلات عدة، وفهوم مختلفة، فالنص نص في معنى وظاهر في معنى آخر، وهذه الظنية في النصوص الشرعية قرآنا وسنة، ليست صفة نقص ولا عجز عن البيان، بل هي من صفات الخطاب المبين، وخصائص الكلام البليغ، الذي يضمر أكثر مما يظهر، تحسينا للكلام وتقوية للتعبير وتحفيزا للأذهان، وهذه الظنية لا تعني إطلاق التأويل في الظني من النصوص، وحرية الفهم للمعاني، بل الأمر مصون بقوانين وقواعد ضابطة للفهم وموجهة للمعنى وصائنة للتأويل، وسخر الله أسباب الحفظ لكتابه وسنة نبيه نصا وتأويلا وفهما، فالحفظ لم يكن للنصوص فقط، وإنما شمل القراءة والتأويل والفهم والتنزيل، لخطورة فعل التأويل في التشريع والتدين والعمران البشري ورعاية أمر الله فيه، فكان أن جعل الله في كل عصر عدولا ينفون عن الكتاب والوحي والسنة تحريف الغالين وانتحال المبطلين وخطأ الضالين.

وهكذا اهتم علماء التأويل في اللغة والتفسير والكلام والفقه والأصول والبلاغة بالظني والقطعي، وميزوا بينهما وضبطوا خصائصهما، حيث يفيد الأول ما لا يحتمل إلا وجها واحدا من أوجه الفهم، ولا يقبل من المعاني إلا معنى محددا لا يختلف فيه اثنان، وهو قليل في خطاب الوحي لا يقبل اجتهادا ولا يتطلب تأويلا، بينما الظني هو الذي يحتمل معان عدة وتأويلات مختلفة، تجتهد فيها العقول وتتباين فيها الفهوم، وتتنافس فيها الأنظار، وهذا من محاسن هذه الشرعة المباركة، التي دعت لاستعمال العقل وإعمال النظر، وبسطت أمام العقل الإنساني مجالات لتحقيق ذلك وإنجازه، فهذا كتاب الله فيه من الظاهر الكثير، وتلك السنة فيها أكثر، وهذه فسحة أفسحت

للنظار وأتيحت للعقول السليمة الطالبة للفهم القاصدة للنظر غير المغرض، فمنح ذلك الشريعة الإسلامية مرونة في الأحكام واستجابة للمطالب ومسايرة ومواكبة للعصور.

ونسوق هنا مثالا عن هذا التعدد في الفهم وتكامله في صناعة المعنى في تفسير كتاب الله عز وجل، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ إشارة إلى الغضب الذي نال فرعون وقومه بشركهم وضلالهم وإذايتهم لموسى وقومه، وقد تعددت التأويلات والتفسيرات لهذه الآية الكريمة بين حامل للمعنى على حقيقته، معتبرا أن للسماء والأرض بكاء، شهد بذلك نصوص من السنة والأثر، وبين حامل للمعنى على المجاز، وهذه صور من تلك التأويلات الكثيرة المتعددة:

- فمنهم من اعتبر أن الآية الكريمة تعبير مجازي عن عدم الاكتراث بحالهم من لدن المخلوقات، وعبر عن الجزء بالكل أو عن الحال بالمحل، بمعنى أن لا أحد قد اكترث لحال هؤلاء أو تأسف على فقدانهم وهلاكهم، لشناعة فعلهم ووضاعة شأنهم.
- ومن المؤولين من اعتبر أن في الآية استعارة للتعبير عن أهل السماء والأرض بالسماء والأرض، بمعنى أن لا أحد من أهل السماء والأرض ومخلوقات الله بهما بكى على هؤلاء لغضب الله عليهم وإهلاكهم بالغرق في لجج البحر.
- ومنهم من اعتبر ذلك استعارة عن عدم تغير حال السماء والأرض لموت هؤلاء وهلاكهم، تشبيها لهم بعدم تغير حال الإنسان إذا لم يبك، حيث تبقى ملامح وجهه على حالها و يبقى وجدانه سليما غير منكدر، في حين يغير البكاء حال الإنسان ظاهرا وباطنا.

أما الفرقة الثانية التي اعتمدت حقيقة معنى البكاء، فإنها حملت البكاء في الآية على أصل معناه في اللغة المراد منه البكاء حقيقة، فالسماء والأرض تبكيان لموت المؤمن، وتتأثران بذلك، واعتبارا لمفهوم المخالفة فهما لا يتأثران بموت غير المؤمن، واعتمدوا في هذا الفهم على نصوص من الحديث النبوي وأقوال علماء الصحابة

رضوان الله عليهم، والتي لا يمكن أن تكون من اجتهادهم، لأن ذلك مما لا وجه للاجتهاد فيه، وبالتالي فهي مأخوذة عن النبي ﷺ، ومن ذلك الأدلة الآتية:

- قال رسول الله ﷺ: "ما من عبد إلا وله في السماء بابان، باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه، فالمؤمن إذا مات فقداه وبكيا عليه"، وتلا هذه الآية.

- وقال ابن عباس ﷺ: "إن الأرض لتبكي على المؤمن أربعين صباحا"، ثم قرأ الآية.

- وقال علي ﷺ: "إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء"، ثم تلا الآية.

وهذه الآثار وغيرها كانت معتمد من قال بأن البكاء محمول في هذه الآية الكريمة على حقيقته، وذلك أن السماء والأرض ومواضع العبادة والصلاح ومداخل العمل الصالح ومخارج الرزق في السماء تبكي صاحبها المؤمن، لكن أصحاب هذه الآراء اختلفوا في كيفية البكاء، فهل هو بكاء كبكاء الإنسان أم تغير حال، كما ذكر عطاء بأنه احمرار أطراف السماء، وبهذا يعود بعض هؤلاء للتأويل المجازي، وقد ذكِر بأن أحوال السماء والأرض قد تغيرت بموت بعض الصالحين.

إن كل هذه التأويلات المختلفة لهذه الآية الكريمة، وهذه الفهوم المتباينة، والمعاني المترتبة عن كل ذلك، رغم تعددها واختلافها وتباينها، باختلاف سبل الوصول إلى المعنى: الحقيقة أو المجاز، واختلاف وسائل ذلك: الأثر والنقل أو النظر والعقل، واختلاف المناهج والمدارس: التفسير النقلي أو التفسير العقلي أو التفسير اللغوي البلاغي أو التفسير الإشاري العرفاني، فكل ذلك وإن اختلف وتباين فإنه لا يتناقض ولا يتعارض، بل يتكامل ويعضد بعضه البعض في توسيع المعاني وتأكيدها، وكل هذه الفهوم إنما تفيد أن موت الكافر المشرك المغضوب عليه من الله عز وجل لا تتأثر له مخلوقاته سواء من الجن أو الإنس أو السماوات والأرض أو ما فيهما، لحقارة مقامه ووضاعة شأنه بعصيانه لخالقه.

2- ظنية المعاني في كتاب الله وقواعد التأويل المجازي:

من وسائل تبين الدلالات الظنية في كتاب الله عز وجل ما وضعه علماء اللغة والبلاغة والأصول من ضوابط ومبادئ وخصائص مميزة بين أنواع الألفاظ، سواء عند الوضع، أو عند الاستعمال، أو عند التلقي، ومن ذلك قواعد التأويل المجازي، حيث ميزوا بين الحقيقة والمجاز في الخطاب العربي عامة، وفي خطاب القرآن بشكل خاص، فالحقيقة مشتركة بين ذات الشيء وماهيته، كقولنا: حقيقة الإنسان: حيوان ناطق، وبين ما يقابل المجاز: وهو اللفظ المستعمل في غير ما يستعمل فيه عادة في لسان العرب، وهو ما يفقد المجاز الاطراد الذي هو صفة للحقيقة، أو هو اللفظ المستعمل في موضوعه المتخاطب به عند إرادة التخاطب، فيتناول اللغوية كالصلاة: للدعاء، والشرعية، كالصيام للإمساك عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والعرفية: كالدابة لذوات الأربع. أما المجاز فهو اللفظ المستعمل في غير موضوعه الأصلي، لاشتراكهما في وصف مشهور، كالأسد للشجاع، والحمار للبليد، والبحر للعالم والجواد، حيث تحصل المشابهة في الشجاعة، وفي البلادة، والكثرة، وتسمى هذه المشابهة العلاقة المجوزة[1].

وقد تعددت أنواع العلاقات بين الحقيقة والمجاز عند الانتقال بينهما، وبذلك تعددت أصناف المجاز بحسب تعدد جهات العلاقة، ومن ذلك:

- إطلاق اسم السبب على المسبب، والأسباب أربعة:

1- فاعلي: كإطلاق اسم النظر على الرؤية، نحو قوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾، أي: له رائية، لأن النظر فعل الفاعل، وهو سبب الرؤية.

2- وغائي: كتسمية العنب خمرًا، في قوله تعالى: ﴿إني أراني أعصر خمرًا﴾، وإنما عصر عنبًا، فسماه باعتبار غايته، وهي الخمرية.

1 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.94.

3- وصوري: كتسمية القدرة يدًا، نحو قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يدٍ﴾، ولعله سمي صوريًا؛ لأن الذهن يبادر عند إطلاقه إلى حقيقته، وهو صورة كاليد الحقيقية ههنا.

4- وقابلي: كسال الوادي، لقبول الوادي سيل الماء فيه[1].

- إطلاق اسم المسبب على السبب، كقوله تعالى: ﴿وينزل لكم من السماء رزقا﴾، حيث عبر الله عز وجل عن تنزيل المطر من السماء بالرزق الذي هو مسبب عنه، فبالمطر يرزق الناس من خيرات الأرض، فانتقل ذهن المتلقي من الرزق إلى سببه وهو الماء النازل من السماء.

- إطلاق اسم الشيء على مشابهه، كقوله تعالى: ﴿جدارا يريد أن ينقض﴾، وهو تشبيه له بالعاقل المريد مبالغة في التصوير وهمه بالتهدم والتصدع، وقوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾، مشبها في هذا التعبير المجازي البليغ انتشار الصبح وتبدد كثافة الليل وتغير حال النسيم وانبلاج الفجر بحال التنفس الذي هو صفة لجسد الكائن الحي الدال على الانتقال من الانقباض إلى الانبساط.

- إطلاق لفظ الضد على ضده، كما تطلق العرب لفظ السليم على اللديغ، واسم البصير على الأعمى الضرير، وذلك كقوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾، "إذ حقيقة الجزاء في الثواب"[2]، نحو: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾، ويظهر التعبير بخلاف المراد وضده في قوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، حيث أفاد سياق التهديد والتحقير والوعيد بالعذاب أن المراد عكس ما تفيده العبارة في حقيقتها، فكان ذلك مجازا يراد به عكس المنطوق.

1 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.94-95.

2 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.95.

- إطلاق اسم الخاص على العام مجازا، كما هو الأمر في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، حيث ترجم المعنى بلفظ خاص وهو الذكر، تعبيرا عن كل أنواع الطاعات والقربات، من صلاة وذكر وقراءة قرآن وسماع خطبة ودعاء وكل ما يمكن أن يظفر بها المؤمن المقبل على بيت الله أثناء صلاة الجمعة، وهذا خاص أريد به عام مجازا، كما عُبِّر بلفظ خاص وهو ترك البيع دلالة على كل ما يساوي البيع مما يمكن أن يشغل الإنسان عن صلاة الجمعة، سواء كانت تجارة أو زراعة أو رعيا أو وظيفة أو طلب علم أو لهوا أو سعيا في قضاء حاجة، ورغم أن ظاهر الآية يفيد النهي عن خصوص البيع لكن المؤول يفهم أن المراد هو النهي عن كل ما يقوم مقام البيع في الصد عن فضائل وخيرات صلاة الجمعة.

- تسمية الشيء بأصله وما كان عليه، كقوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾، أي آتوا الذين كانوا من قبل يتامى أموالهم، لأن ذلك لا يمكن أن يتم إلا برشدهم وخروجهم من حال اليتم بذلك، فيمكنون من أموالهم للتصرف فيها.

- تسمية الحال بمحله، كقوله تعالى: ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾، وهو تعبير مجازي بالحالِّ وهو الرحمة عن محله وهو الجنة، ففهم بالتأويل المجازي أن المراد هو الخلود في الجنة.

- تسمية المحلِّ بحالِّه، كقول الله عز وجل: ﴿فليدع ناديه﴾، تقريعا وتحديا لأبي جهل الذي بالغ في إلحاق الأذى بالرسول الكريم، بدعوته إلى أن يدعو أصحابه بالنادي الذي كانوا يجتمعون فيه، فعبر عن الحالِّ وهم أهل النادي بالمحل وهو النادي، وهو الأمر ذاته في قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ والذي يُرَادُ به سؤال الحالِّ في هذا المحل وهم أهل القرية.

- الإنشاء في صورة الخبر، وهي تلك الأوامر والنواهي التي جاءت على صورة أخبار في القرآن الكريم، والخبر كما هو معروف عند أهل اللغة هو ما يراد به الإعلام، لكنه

يفيد إنشاء أحكام في بعض المقامات والسياقات الخاصة، وذلك على وجه المجاز عند البعض، وقال البعض أن ذلك حقيقة متَّقين بذلك بعض الاعتقادات الفاسدة، حيث إن الأصل في الأخبار الإعلام، لكنها قد تؤول إلى بيان الغيب وإنشاء الأحكام، مثال قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، والذي جاء في صيغة خبر مفيد للوعيد.

وهكذا تعددت أوجه المجاز وصوره بتعدد أنواع العلاقات بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، فقد أوصلها بعضهم إلى خمسة وعشرين وجها ومنهم من تجاوز ذلك فأوصلها ستة وثلاثين[1]، ومن الصور المذكورة عند العلماء: "إطلاق اسم العلة على المعلول، واللازم على الملزوم، والحال على المحل، والأثر على المؤثر، والعكس في هذه الصور، فهي ثمانية أخر، ويمكن استخراج أكثر من ذلك، إذ العلاقات والمناسبات عن الأشياء لا تنحصر"[2]، وفي كتاب الله عز وجل تعبيرات مجازية يصعب إدراجها في واحد من هذه الأصناف.

وقد أدرك العلماء قيمة التأويل المجازي وفرعوا لذلك مباحث وأبحاثا، قال عنها العالم النحرير والمؤول الفذ نجم الدين الطوفي في كتابه الإكسير في علم التفسير مبينا سبل تمييز الحقيقة والمجاز وضوابط ذلك في اللسان العربي: "ثم ها هنا أبحاث:

- **الأول:** قيل تعرف الحقيقة بوجوه:
  - نص أهل اللسان.
  - تحديدها.
  - تعديد خواصها.

1 . سعيد النكر، المنهجية الأصولية والبحث البلاغي، ص.120-124.

2 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.98.

- اطرادها: وهو جريانها على ما في معناها نحو: ﴿فلان عالم﴾، لقيام العلم فيصدق العالم على كل ذي علم، ﴿واسأل القرية﴾ إذ لا يطرد في سؤال الربع والطلل، لأنه لا يكفي، واطراد الحقيقة المذكورة من قبيل اطراد العلة في معلولها.

- مبادرة الذهن عند إطلاق اللفظ، كنسبته إلى الماء الكثير عند إطلاق لفظ البحر.

- تجرد اللفظ عن القرينة وهي علامة عدمية.

- **الثاني:** ويعرف المجاز:

- بالنص عليه نحو: هذا مجاز.

- وبالقرينة، نحو: «إياك والأسد» عن رجل حمل بيده سيفًا مجردًا.

- وبعدم الاطراد والمبادرة.

- وبالمقابلة، أي وروده مقابلاً للحقيقة نحو: ﴿ومكروا ومكر الله﴾، ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾، وفيه نظر[1]، وقوله فيه نظر لأنه تم حمل المكر والسيئة على المجاز، لأنهما لا يليقان به عز وجل استنادا لفهم البشر، لكن يمكن حملها على الحقيقة مع مراعاة خصوصية المقام، مع اللجوء للتأويل.

ويقول الطوفي في بيان دور التعبير المجازي في اللغة وفي القرآن، والذي يعدل إليه طلبا للاتساع في الكلام والفصاحة والبلاغة والبيان فيه وتأكيد معانيه: "واعلم أنه إنما يعدل إلى المجاز للاتساع، والتشبيه والتوكيد، نحو: ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾، فاتسع بزيادة الرحمة في أسماء الجهات، وشبهها بالمظروفات، وأكد بتصييره ما لا يدرك حسا، مدركًا به، كقول القائل: لو تشخص المعروف لرأيتموه حسنًا، ولو تشخص المنكر

1 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.98-99.

لرأيتموه قبيحًا، فمتى عدمت هذه الأوصاف، تعينت الحقيقة لأصالتها، وعدم الفائدة في العدول عنها"[1].

كما أن بعض المجازات قد تغلب على حقائقها، يعني: "أنها صارت أبلغ في الإفهام، وأسبق إلى الأفهام، نحو قوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾، إذ هو أبلغ وأظهر وأخص من انتشر، لتضمنه تشبيه الليل بالجسد الكثيف المظلم، والصبح بظهور النفس اللطيف المشرق، لصدوره عن النفس المشرقة عقلاً، وأيضًا تشبيه انتشار الصبح شيئًا فشيئًا بظهور النفس كذلك"[2]، وهو الأمر نفسه الذي نجده في قوله تعالى: ﴿والليل إذا عسعس﴾، فعسعس في أصل التواضع اللغوي تفيد عمّى الشيءَ ولبَّسه، ومنه تعمية الليل وتلبيسه للرؤية بشدة ظلامه واشتداد الظلمة فيه، فكان استعمال عسعسة الليل أكثر بيانا وبلاغة في تأكيد وتصوير المعنى المراد.

ومن المجاز في القول الاستعارة وفيها التشبيهية والتخييلية، وهذه بعض صورها في كتاب الله العزيز، والتي حدها الرماني بأن قال: "هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل"، كما تستعمل للمبالغة في التشبيه والتعبير البليغ، كما في قوله تعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب﴾ دلالة على اللوح المحفوظ الذي شبه هنا بالأم الحاضنة والتي منها أصل الولد ومنشؤه ومحضنه، وكقوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾، وهي استعارة لوصف منتهى الطاعة للوالدين وغاية التواضع لهما، وكقوله عز وجل: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾، فالمستعار في هذه الآية الكريمة الاشتعال، والمستعار منه النار، والمستعار له الشيب، والجامع بين المستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النار لبياض الشيب، وفائدة ذلك وحكمته وصف ما هو أخفى بالتشبيه لما هو أظهر، وأجل الاستعارات الاستعارة المرشحة، كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾،

1 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.100.

2 . نجم الدين الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص.100.

فإن الاستعارة الأولى وهي لفظة الشراء رشحت الثانية وهي لفظتا الربح والتجارة للاستعارة"[1].

إن هذا الذي ذكرناه حول التأويل المجازي وقواعده وضوابطه وغيره كثير، ما هو إلا غيض من فيض، في بحر البلاغة واللغة والأصول والنحو، وغيرها من فنون المعرفة التأويلية لخطاب الوحي، وكل ذلك بغية الظفر بالمعاني في هذا الخطاب الذي غلبت نصوصه الظنية على القطعية من حيث الدلالة، وفي ذلك ما فيه من حسن البيان والغنى الدلالي، وتحفيز العقل المسلم على النظر والاجتهاد والتوسل بالعدة المنهجية التأويلية المتطورة بتطور الإنسان.

أمثلة من ضرورة التأويل المجازي في تفسير القرآن الكريم ليستقيم المعنى ويستوي الفهم:

- ﴿خذ من أموالهم صدقة تزكيهم وتطهرهم بها، وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم﴾، حيث حمل التطهير على المعنى المجازي وهو تطهير الأنفس من الذنوب والقلوب من النفاق بحسب سياق التخاطب وسياق التنزل، بينما تحمل الصلاة هنا على الحقيقة اللغوية وهي الدعاء والاستغفار، لأن السياق صارف عن إرادة المعنى المجازي اللغوي أو الحقيقة الشرعية المفيدة للصلاة المعروفة شرعا.
- ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾، حيث دلت الصلاة على معان مجازية شرعية مخالفة لمعنى الصلاة في حقيقتها الشرعية، وهي معان مختلفة بحسب سياق الورود.
- ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلو بها إلى الحكام﴾، فالأكل هنا تعبير مجازي عما يفوقه من أوجه الاعتداء والغصب لمال الغير، وهذا تعبير بالجزء عن الكل وبالأدنى على الأعلى.

---

1. ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير، ص.97-99.

- ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى بالباطل إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾، صيغة مجازية دالة على التحريم حسب القرينة الحافة وهي التوعد بالنار، والتحريم للأكل كأدنى درجات الإضرار بمال اليتيم، وذلك يتضمن ويستلزم النهي عن كل صور النهب والغصب لمال اليتيم الصريحة منها والخفية.

- ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾، وصفة التذليل فيها كل معاني الخضوع والتسخير والانصياع والتحكم وحرية التصرف.

- ﴿وما خلقنا السماوات والأرض لاعبين﴾، دلالة على الحكمة والقصد فيما خلق الله عز وجل.

- ﴿صبغة الله التي صبغ الناس عليها ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾، أي صنعة الله.

المجاز في الأمر:

فلفظ "افعل" تفيد الوجوب وهذا على محمل الحقيقة، لكنها تفيد غير ذلك مجازا، وهذه صور لذلك:

- الوجوب:﴿ "وأقم الصلاة﴾.
- الندب:﴿ "فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا﴾.
- الإرشاد:﴿ "واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾.
- الإباحة:﴿ "وإذا حللتم فاصطادوا﴾.
- الآداب: ﴿واخفض من صوتك﴾﴿ "لا تمش في الأرض مرحا﴾.
- الامتنان:﴿ "ادخلوها بسلام آمنين﴾.
- التهديد:﴿ "اعملوا ما شئتم﴾.
- التعجيز:﴿ "كونوا قردة خاسئين﴾.

- الإهانة:﴿ "ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾.

- التسوية:﴿ "فاصبروا أو لا تصبروا﴾.

- الإنذار:﴿ "تمتعوا﴾.

- الدعاء:﴿ "اغفر لي﴾.

- القدرة:﴿ "كن فيكون﴾.

المجاز في النهي:

في صيغ النهي كذلك "لا تفعل" هناك ما يحمل على الحقيقة وهناك ما يحمل على المجاز، فصيغ النهي دالة على التحريم والكراهة أصالة وحقيقة، ودالة على غير ذلك مجازا، مثل:

- التحريم:﴿ "ولا تقربوا الزنى﴾.

- الكراهة:﴿ "ولا تأكلو مما لم يذكر اسم الله عليه﴾.

- التحذير:﴿ "ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

- التحقير:﴿ "ولا تمدن عينيك﴾.

- البيان والعاقبة:﴿ "ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾.

- الدعاء:﴿ "لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾.

- التيئيس:﴿ "لا تعتذروا اليوم﴾.

- الإرشاد:﴿ "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾.

المجاز سبيل للغنى الدلالي وتعدد المعاني في القرآن الكريم:

مما ينبغي التنبيه له قضية من القضايا التي شغلت البلاغيين والأصوليين في تبين الخطاب الحكيم، وهي: هل التشبيه والكناية مجاز؟ مسألة أثارت جدلا عند الأصوليين والبلاغيين، فمنهم من ميز بين التشبيه والمجاز، وهذا دأب المتأخرين من مقعدي البلاغة العربية كالجرجاني والسكاكي، ومنهم من جعل التشبيه وجها من أوجه المجاز وهذا دأب المتقدمين كأبي عبيدة معمر بن المثنى. ومنهم من وضع لهذا التمييز شروطا وضوابط، وهو الأمر نفسه بالنسبة للكناية والاستعارة والتعريض والإضمار والاقتضاء والتقديم والتأخير، وغيرها من ظواهر وأساليب البيان، التي لا يراد بها ظاهر القول وإنما المراد معان ضمنية أو تبعية أو مستلزمة أو ملزومة، وقد خاض في هذا المسائل بعض المحققين كالقرافي والسبكي، وانطلاقا من أقوالهم نجد فريقا ميز بين التشبيه والمجاز، وآخر قال بأن التشبيه مجاز وكذا الكناية والتعريض، خاصة إذا ما نظر للمجاز بمعناه العام حيث يفيد:

- نقل المعاني من مقام إلى مقام.
- وجواز بالسامع من معان ظاهرة يفيدها اللفظ في حقيقته وأصل وضعه اللغوي إلى معان خفية يصل إليها بالتأويل حسب القرائن والسياق.

وهذا عينه ما نجده في التشبيه والكناية والتعريض والإضمار والاقتضاء وغيرها من خصائص الكلام ومبادئ التأويل التي يكون فيها انتقال وجواز من معان مباشرة إلى معان غير مباشرة، وفي هذا ما فيه من توسيع دائرة المعاني وحسن البيان وبراعة التعبير عن المرادات.

إن المجاز سبيل للتعبير عن كلية القرآن وشمولية معانيه وقابليتها للتجاوب مع أوضاع الناس وانتظاراتهم التأويلية المختلفة، وبسبب المجاز اختلفت الأقوال في تفسير آيات القرآن الكريم، وهي وإن تباينت فقد كانت متكاملة في بناء المعاني، مانحة خطابَ الوحي مرونة في الدلالة واتساعا في المعاني، فتعددت الأقوال واختلفت الآراء

وتباينت التأويلات وكثرت التفاسير، ولم يؤد ذلك إلى معارضة النص التام المنسجم الموحد وهو القرآن الكريم، ولم تؤد في الوقت نفسه إلى نقض هذا النص وتضييع معانيه بقدر ما أبرزت غناه وانسجام معانيه وتكاملها واختلافها في دائرة وحدة كلية تشملها، وبهذا الغنى الدلالي لم تستطع كل التفاسير الكثيرة قديما وحديثا ولن تستطيع كل التفاسير في القادم من الزمن استنفاد كل المعاني الكامنة في كلام الله عز وجل، وقد بلغت المئات، ومن شأنها أن تبلغ الآلاف وحتى الملايين، وسيبقى القرآن قويا بدلالاته يجزل العطاء بمعانيه لكل مقبل عليه بفكره وقلبه إن سلم مقصده وحسنت نيته.

وقريب من المجاز صور التشبيه في القرآن الكريم المؤدية بدورها إلى توسيع وتكثير المعاني وإغناء دلالات آياته بيانا وتأويلا، وفي هذا الوجه البلاغي ورد قول الله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، وقد ذكر الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكثير من الأقوال المتباينة مضمونا المتفقة مرادا، ومنها:

- المراد في الآية تصوير حال قلب الكافر، الذي يغشاه جهل وتغمره حيرة وضلال، فينتج عن ذلك ظلمة حالكة، تسد أمامه الآفاق، وتنسد بها عليه الحجب عن إدراك الحقائق، وهو عمى البصيرة، وظلمة القلب.
- ومنهم من قال أن الآية دالة على ذلك الختم على القلوب كما في قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾، كما ذكره ابن عباس ﷺ، وتروم الآية تقريب ذلك الحال بتصوير معناه بذلك الأسلوب البليغ المشبه للقلب بالبحر اللجي والأعمال الفاسدة بالظلمات التي تغشاه، فيتكون من ذلك غشاوة تغشى سمع الكافر وبصره

وفؤاده، حيث يضرب الله على قلبه وسمعه وبصره بسبب ضلاله وتكذيبه بالحق لما جاءه.

- ومن التفاسير المذكورة في بيان المراد من الآية أن: الكافر يتقلب في خمس من الظلم، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة، وهو قول مروي عن أبي بن كعب، وهي معان ضمنية تفهم مجازا من مراتب الظلمة الخمس المذكورة في الآية، وهي ظلمة في العمق، وظلمة في البحر، وظلمة في الموج الذي يغشى البحر، وظلمة في الموج الذي يغشى الموج، وظلمة في السحاب الذي يحجب كل ذلك عن نور الشمس، فهي خمسة حجب نتج عنها ظلام حالك، حيث يزداد الظلام والغشاوة بكثرة الحجب.

وكل هذه المعاني التي ذكرها الطبري رحمه الله ليست أصلية في ظاهر الآية وألفاظها، وإنما تفهم من خلال مقام التخاطب وسياق الكلام، وذلك باستعمال التأويل المجازي الذي ينتقل بذهن الناظر من ظاهر الخطاب إلى باطنه، ومن حقيقته إلى مجازه، ومن معانيه المباشرة إلى معانيه غير المباشرة المقصودة أصالة من الخطاب.

السياق وتكثير المعاني القرآنية

إن استعمال الألفاظ في غير ما وضعت له في أصل وضعها اللغوي يؤدي إلى تكثير المعاني وتنويع الدلالات بحسب سياقات القول وقرائن الأحوال[1]، فتتباين بذلك المعاني باختلاف مواضع استعمال الكلمات، وقد تتعدد في الموضع الواحد بحسب الفهوم، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك، نأخذ منها لفظ "الرجز" واستعمالاته في كلام الله عز وجل، وما المراد به في كل موضع، هل هو معناه اللغوي الأصلي؟ أم شيء آخر يسمح به مقام وسياق التخاطب؟ وفي حال الاتفاق على معنى مجازي معين فهل يفهم على وزان واحد؟

فلفظ الرجز يفيد في اللغة الاضطراب والزلزلة حسب ما أورده الراغب الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن، ومنه نقول ناقة رجزاء إذا تقارب خطوها واضطرب لضعف فيها، لكن استعمال هذه اللفظة في القرآن الكريم أفاد معان مجازية مباينة لأصل الوضع اللغوي، وتفهم هذه المعاني باختلاف سياقات الإيراد والقرائن الحافة بهذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.
- وقوله عز وجل:﴿ "والرجز فاهجر﴾.

وكلها معان تراوحت حسب أقوال أئمة التفسير واللغة بين ما يلي:

- الدلالة على الذنب.
- الدلالة على العذاب.
- الدلالة على عبادة الأصنام والأوثان.

1- انظر ما أورده التلمساني في كتابه مفتاح الوصول حول القرينة والسياق ص.56-59.

- الدلالة على وسوسة الشيطان.

- الدلالة على الشرك.

- الدلالة على الغضب.

- الدلالة على الطاعون.

والملاحظ في كل هذه المعاني أنها حافظت على بعض من الحمولة الدلالية لأصل الوضع اللغوي لكلمة الرجز الدالة على الاضطراب والزلزلة، رغم أن المراد يفوق ذلك بحسب مقام التخاطب، فدل الرجز على العذاب والغضب في سياق التهديد، وعلى الشرك والذنب في سياق النهي، وعلى عبادة الأوثان في سياق الإرشاد، وهنا ننبه إلى أن قول ابن كثير في تفسير لفظ الرجز فيه نظر، حيث قال رحمه الله مستندا لأقوال أئمة التفسير من الصحابة والتابعين: "قال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب، وهكذا روي عن مجاهد وأبي مالك والسدي والحسن وقتادة أنه العذاب، وقال أبو العالية: الرجز الغضب، وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون"، وتفسير الرجز بالعذاب مطلقا كما أورد ابن كثير بداية أمر لا يقبل، لأن للكلمة دلالات أخرى في سياقات مختلفة، ومنها دلالتها على الشرك أو عبادة الصنم في قوله تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾، حيث لا يقبل سياق النهي هنا أن تكون الدلالة على العذاب، إذ لا يمكن أن يأمر الله عز وجل نبيه بهجران العذاب، وإنما أمره بهجران الأوثان والذنوب والشرك، حيث لا يمكن تفسير الرجز بالعذاب في سياق موضع النهي والإرشاد.

وأحيانا قد يتفق العلماء على معنى معين يسمح به السياق، لكنهم يختلفون في تحديد المراد بذلك المعنى، فكلمة الرجز في بعض السياقات القرآنية اتفق العلماء على أنها العذاب، لكنهم اختلفوا بالمقصود بهذا العذاب بين أقوال ثلاث:

1- الرجز هو العذاب بالطاعون، وفي ذلك أورد الطبري رحمه الله في تفسير قول الله عز وجل: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾قولا لابن زيد بأن الله بعث طاعونا على بني إسرائيل فلم

يبق منهم أحدا، وقال: "يغلب على النفس صحة ما قاله ابن زيد، للخبر الذي ذكرت عن رسول الله ﷺ في إخباره عن الطاعون أنه رجز، وأنه عُذِّب به قوم قبلنا، وإن كنت لا أقول إن ذلك كذلك يقينا، لأن الخبر عن رسول الله ﷺ لا بيان فيه أي أمة عذبت بذلك، وقد يجوز أن يكون الذين عذبوا به، كانوا غير الذين وصف الله صفتهم في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، والخبر المذكور هنا عن رسول الله صلى الله عليه والذي استعمله الطبري مطبقا لأصل من أصول التفسير وهو تفسير القرآن بالسنة النبوية، هو ما أورده البخاري عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: "الطَّاعونُ رِجْزٌ أُرسِل على بني إسرائيلَ أو على مَن قبْلَكم فإذا سمِعْتُم به بأرضٍ فلا تقدَموا عليه وإذا وقَع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرُجوا فرارًا منه"، وهكذا أفاد الرجز عند البعض معنى الطاعون، وقال ابن عاشور: "ولذلك عوقبوا فأُنزِل عليهم رجز من السماء وهو الطاعون، وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له سبب أرضي من عدوَى أو نحوها فعلم أنه رمتهم به الملائكة من السماء بأن أُلْقِيت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم".

2- الرجز هو الوباء: وفي هذا يقول ابن عاشور رحمه الله: "أن الرجز الذي أصاب الذين ظلموا هو الوباء الذي أصاب العشرة الجواسيس".

3- الرجز هو الآيات الخمس التي سلطها الله عز وجل على قوم فرعون، وهم القبط، جزاء لهم على تكذيبهم وإصرارهم على عدم الإيمان بموسى عليه السلام، وهذه الآيات الخمس المهلكات المدمرات المفسدات للحياة المنغصات للعيش هي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهي المبينة في قول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، وقد أورد الطبري في سياق تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، قولا لأبي جعفر يقول فيه: "وأولى القولين بالصواب في هذا الموضع أن يقال: إن الله تعالى ذكره

أخبر عن فرعون وقومه أنهم لما وقع عليهم الرجز، وهو العذاب والسخط من الله عليهم، فزعوا إلى موسى بمسألته ربَّه كشفَ ذلك عنهم. وجائز أن يكون ذلك الرجز كان الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، لأن كل ذلك كان عذابًا عليهم، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان طاعونًا، ولم يخبرنا الله أيّ ذلك كان، ولا صحَّ عن رسول الله ﷺ بأيِّ ذلك كان خبرٌ، فنسلم له. فالصواب أن نقول فيه كما قال جل ثناؤه: ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾، ولا نتعداه إلا بالبيان الذي لا تمانع فيه بين أهل التأويل، وهو لمّا حل بهم عذاب الله وسخطه".

وهذا الذي ذكر في تفسير لفظ "الرجز" من تعدد المعاني بحسب السياقات والفهوم واختلافها عن ما أريد بها في أصل وضعها اللغوي يمكن تعميمه على الكثير من الألفاظ القرآنية، والتي استعملت استعمالا مجازيا في غير ما هي دالة عليه حقيقة، وهذا يجعل من المجاز سبيلا للغنى الدلالي في اللفظ القرآني مفردا ومركبا، وذلك لأن في المجاز خصائص ثلاث منحته هذه المزية، وهي:

1- الانتقال من مقام إلى مقام، من ظاهر لباطن ومن معان مباشرة إلى معان غير مباشرة ومن حقيقة إلى مجاز.

2- وجود علاقة بين المعنى الظاهر والمعنى الباطن.

3- استلزام قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصل وداعية إلى التماس معنى آخر غيره.

4- تدخل السياق المقالي والحالي لتوجيه المعنى وتحديد المراد المقصود في الكلام.

- أمثلة إضافية عن تكثير المعاني في التأويل المجازي باستحضار السياق:

1- قول الله عز وجل: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾، حيث يحتمل السياق اللباس حقيقة ويدل بسياقه لباس الحياء أو الإيمان أو السمت الحسن، وذكر الشوكاني: "والمراد

بلباس التقوى : لباس الورع، واتقاء معاصي الله، وهو الورع نفسه، والخشية من الله، فذلك خير لباس وأجمل زينة"[1].

2- قول الله عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، فظاهر الآية يفيد الإطراء والمدح ورفع القدر والمقام، لكن استحضار سياق الآية وهو الوعيد والتهديد بذكر عذاب الآخرة وبيان جزاء المشركين المكذبين، يدعو المؤول المفسر للآية إلى حمل العبارة على غير ما أريد بها في ظاهرها، ليفهم من خلال ذلك أن المراد معنى خفي غير المعبر به، وهو التقريع والتوبيخ والاستهزاء، كما يوجد في الآية الكريمة استعمال مجازي آخر وهو لفظ "ذق" التي لم يُرَد بها تذوق الطعوم بآلة كشف ذلك وهي اللسان، وإنما أريد بها تذوق عذاب النار وأهوال الجحيم، كما أن لفظ الدعوة للتذوق تكون إكراما للمتذوق، لكنها هنا أفادت معنى مجازيا فيه التحقير والتصغير والتنقيص.

3- قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، حيث دلت العبارة القرآنية على غير المراد بالذوق في أصل التواضع اللغوي عند العرب، فكلمة الذوق تفيد تلك القوة والقدرة الإنسانية التي تُدرك بها الطعوم، وذلك يكون باللسان، حيث تُميز بقوة الذوق الأطعمة وتُدرك بها لذتها فتستحسنها الأنفس، أو يُدرك قبحُها فتمجه الطباع وتستهجنه وتستقبحه الألسن قبل البطون، وقد يُستعمل لفظ الذوق استعمالا مجازيا في غير معناه الحقيقي، دالا على أنواع أخرى من التذوق بغير اللسان، كتذوق الفروج في النكاح، وهذا ما عبر عنه الحديث الدال على تحريم زواج المحلل للمطلقة ثلاثا، ووجوب البناء بها والإفضاء بينهما، فقد قالت أمنا عائشة ﵂: "طَلَّقَ رَجُلٌ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا فَتَزَوَّجَهَا رَجُلٌ ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، فَأَرَادَ زَوْجُهَا الْأَوَّلُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: لَا حَتَّى يَذُوقَ الْآخِرُ مِنْ عُسَيْلَتِهَا مَا ذَاقَ الْأَوَّلُ"، وورد في رواية أخرى لعائشة ﵂:

1 . الشوكاني، فتح القدير، ج.2، ص.197.

"جَاءَتْ امْرَأَةُ رِفاعَةَ الْقُرَظِيِّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَأَبَتَّ طَلَاقِي فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزّبِيرِ. فَقَالَ: أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ"، وهذا المعنى المجازي المذكور بالحديث النبوي الشريف يدل على معنى الجماع والنكاح والمباشرة، ووجوب ذلك في زواج المبتوتة في طلاق سابق، قطعا لدابر التلاعب بالأحكام الشرعية في الزواج والطلاق. أما في هذه الآية الكريمة فقد استعمل لفظ الذوق بمعنى مجازي أكثر اتساعا فهو يفيد تذوق النفس والجسد وكل أعضاء الإنسان للموت، الذي يُذكر في الأحاديث والآثار أنه يتخلل الجسد كله، فلا يدع عضوا إلا واجتُثَّ منه الروح وانتزع انتزاعا، ولهذا قال الرسول الكريم ﷺ: "إن للموت سكرات".

4- قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، فظاهر الآية ومعناها اللغوي يفيد النهي عن الأكل فقط، لكن التأويل المجازي، يدعونا إلى استخلاص معنى أوسع وأشمل وحكما أشد، فالنهي عن مجرد الأكل يفيد النهي عن كل ما يفوق الأكل، بل إن إعمال النظر والتدقيق فيه يدعونا إلى القول بأن هذا اللفظ استعمل بحسب الغالب في سلوك القوم المعاصرين للتنزيل، وهو يفيد تحريم كل نوع من أنواع الإتلاف لمال اليتيم وحظر كل ما يمكن أن يلحق الضرر بماله، كيف ما كان نوع هذا المال عروضا أو بساتين أو طعاما أو إبلا أو دورا أو مصانع أو ذهبا أو فضة إلى غير ذلك من أنواع الأموال التي يجوز امتلاكها وتمولها والانتفاع بها، كما تفيد المعاني الخفية غير المباشرة منع وتحريم كل طرق الإتلاف لمال اليتيم سواء كانت بالأكل أو البيع أو اللباس أو التبذير أو الاختلاس أو السرقة.

5- قول الله عز وجل: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾، حيث الجناح حقيقة للطائر من المخلوقات وليس للإنسان جناح، فدل ذلك على غير المراد ظاهرا، بل على لازمه وهو النزول من علو دلالة على التذلل والتواضع وانخفاض النفس رحمة وشفقة ومحبة.

6- قول الله عز وجل: ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله﴾، وفي ذلك كناية عن إثارة أسباب الحرب، تشبيها لها بالنار، بجامع الكرب فيهما، وشدة وقعهما على النفوس[1].

7- قوله تعالى: ﴿يا أيها المزمل﴾، حيث اختلف في تأويله، فمنهم من حمله على حقيقته، حيث قيل له: يا من تلفف في ثيابه أو في قطيفته قم فأنذر قومك وصل لربك، ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قال: يا من تزمل بالنبوة قم أد واجبها عليك، وفي ذلك تكثير للمعاني المحتملة للفظ الواحد في كتاب الله تعالى. وقال البعض أن العدول هنا عن الحقيقة إلى المجاز لا يليق هنا لتعاضد الحقيقة والظاهر في حال النبي ﷺ، ويسوغ هذا الحمل لو الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله[2].

إن هذه بعض أمثلة من كتاب الله عز وجل دالة على قيمة استعمال المجاز في خطاب القرآن ودوره في بيانيته، وكذا قيمة التوسل به في إدراك معاني آي القرآن الكريم وتبين مرادات الله عز وجل فيه، وغيرها كثير، وللإشارة فالتأويل المجازي لا يعني الانفتاح المطلق للمعاني وتضييع المعنى كما يزعم البعض، فالعلماء صانوا ذلك بقواعد وضوابط مانعة من القول بالمعنى دون نظام تأويلي يوجهه ويصونه من العبث والإغراض، فلا يتم الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي إلا بضوابط منها:

- وجود علاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.
- وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.
- مراعاة سياق القول.

1. نجم الدين الطوفي، شرح مختصر الروضة، ج.2، ص.28.

2. ابن العربي، أحكام القرآن، ج.4، ص.323.

خاتمة

هذه أصول تفسيرية وكليات تأويلية ومبادئ قرائية ذكرت مختصرة في طي هذا المسطور، أما تفصيلها ففي كتب فنون مختلفة في المعرفة العربية الإسلامية، وخاصة منها العلوم المنهجية البيانية، من نحو وبلاغة وأصول ومنطق، وإن مطلب استقلال علم أصول التفسير يبقى مطلبا بعيد المنال، لتوزع مباحثه وانتشار قواعده ومبادئه بين هذه العلوم المختلفة، واستقلال كل واحد منها في صروح علمية قائمة بذاتها متميزة بمنهجها مستقلة بمبادئها ومصطلحاتها متفردة بأدواتها ومؤلفاتها مستأثرة بقواعدها وضوابطها، بل ومن هذه العلوم من تجاوز التأسيس للبيان في الخطاب الشرعي إلى التأسيس العلمي لفعل التخاطب والتأويل في اللسان العربي، بل وفي اللغات الطبيعية عامة.

نماذج امتحانات سابقة
في مادة أصول التفسير

امتحانات الدورة الخريفية العادية 2020-2021م

مسلك الدراسات الإسلامية الفصل الخامس مسار القرآن والحديث
وحدة أصول التفسير

أجب عن أحد السؤالين التاليين:

السؤال الأول:

أ- من شروط التكليف شرط الفهم لخطاب التكليف، وهذا يستلزم مخاطبة المكلفين بلغتهم التي يدركون معانيها، أذكر الأصل المقصود هنا في جملة واحدة مع ذكر الآية المفصحة عنه.

ب- بين المراد من قول تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾موضحا ومبرزا أهم مبادئ التأويل وأصول التفسير التي تمكن القارئ من إدراك كنه الآية؟

السؤال الثاني:

أ- من سمات القرآن الكريم أن إعجازه البياني يمنع من الإتيان بمثله ولا يمنع من إدراك كنهه، أذكر آيتين كريمتين تبينان هذه الحقيقة وهذا الأصل في البيان القرآني.

ب- يقول الله عز وجل: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾وقال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾، ما وجه الكلام في الآيتين، وما المعنى الفقهي المستخلص من الآيتين، وكيف يظفر المفسر الفقيه بالمعنى منهما وهما خبرين؟

كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵏ ⵜⴰⵔⵎⴰ ⵏ ⵜⵙⵏⴰⵙⵙⴰⵏⵉⵏ ⵜⵉⵏⴰⴼⴳⴰⵏⵉⵏ - ⵎⵕⵕⴰⴽⵛ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech
MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

امتحانات الدورة الخريفية العادية 2020-2021م

مسلك الدراسات الإسلامية الفصل الخامس مسار القرآن والحديث

وحدة أصول التفسير

أجب عن أحد السؤالين التاليين:

السؤال الأول:

أ- ما هو الأسلوب اللغوي والمبدأ التأويلي الحاضر في قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾، وكذا قوله تعالى:﴿ "فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه﴾.

ب- بين المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا، إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، مبرزا قواعد البيان وأصول التفسير المتوسل بها للظفر بالمعاني في هذه الآية الكريمة؟

السؤال الثاني:

أ- من سمات القرآن الكريم أن إعجازه البياني يمنع من الإتيان بمثله ولا يمنع من إدراك كنهه، أذكر آيتين كريمتين تبينان هذه الحقيقة وهذا الأصل في البيان القرآني.

ب- ما هي أوجه بيان المفسرين لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، مع ذكر قواعد البيان وأصول التفسير المتوسل بها في فهم هذه الآية الكريمة؟

كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵏ ⵜⴰⵡⵉⵏ ⴷ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⵉⵏⵙⴰⵏⵉⵢⵉⵏ - ⵎⵕⵕⴰⴽⵛ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech
MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

امتحانات الدورة العادية 2021-2022م

مسلك الدراسات الإسلامية الفصل الخامس مسار القرآن والحديث

وحدة أصول التفسير

الأستاذ سعيد النكر

أجب عن أسئلة أحد الاختيارين الآتيين:

الاختيار الأول:

1- للإضمار في القرآن الكريم أربعة أوجه من حيث نوع المحذوف، أذكرها دون شرح، مع آية من كتاب الله مثالا لكل وجه؟

2- اتخذ لفظ الرجز أوضاعا دلالية متباينة في القرآن الكريم بحسب السياق، بين ذلك اختصارا؟

3- يعد العدول عن الأوضاع الطبيعية للتخاطب خاصية من خصائص خطاب الوحي، بين بعض مواطن خرق قواعد التخاطب في القرآن الكريم، مبرزا الدلالات المقصودة من خلال آيات تبرز المراد وتجليه؟

الاختيار الثاني:

1- للإضمار في القرآن الكريم أربعة أوجه من حيث مرجع المحذوف، أذكرها اختصارا، مع آية من كتاب الله مثالا لكل وجه؟

2- كيف يسعف السياق المفسر في تبين مراد قوله الله تبارك تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾، وكذا قوله عز وجل:﴿ "يا أيها المزمل﴾.

3- للزوم أهمية بالغة في تأويل آي القرآن الكريم، بين ذلك؟

ملاحظة: من أجاب عن الاختيارين معا فجوابه ملغي، وكذا من خلط بين الاختيارين.

كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵏ ⵜⵙⴽⵍⴰ ⴷ ⵜⵎⴰⵙⵙⴰⵏⵉⵏ ⵜⵉⵏⴰⵖⵓⵏⵉⵏ - ⵎⵕⵕⴰⴽⵛ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech
MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

امتحانات الدورة الخريفية العادية 2020-2021م

مسلك الدراسات الإسلامية الفصل الخامس مسار القرآن والحديث

وحدة أصول التفسير

الأستاذ سعيد النكر

نص السؤال:

ما الفرق بين البيان والتبين في أصول التفسير؟

كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵏ ⵜⵙⵎⵉⵏ ⴷ ⵜⵎⴰⵙⵙⴰⵏⵉⵏ ⵜⵉⵏⴰⵣⵓⵏⵉⵏ - ⵎⵕⵕⴰⴽⵛ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

امتحانات الدورة الاستدراكية 2021-2022م

مسلك الدراسات الإسلامية الفصل الخامس مسار القرآن والحديث

وحدة أصول التفسير

الأستاذ سعيد النكر

أجب عن أحد السؤالين الآتيين:

السؤال الأول:

- كيف يسعف السياق المفسر في الظفر بالمراد؟

السؤال الثاني:

- للقرينة فضل كبير في فهم مراد الله عز وجل في العبارات المجازية في القرآن الكريم، بين ذلك؟

ملاحظة: من أجاب عن الاختيارين معا فجوابه ملغي، وينبغي المزاوجة بين البيان والمثال في الإجابة عن أحد السؤالين.

كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

امتحانات الدورة الخريفية الاستدراكية 2021-2022م

مسلك الدراسات الإسلامية الفصل الخامس مسار القرآن والحديث

وحدة أصول التفسير

الأستاذ سعيد النكر

نص السؤال:

كيف يتعامل المفسر مع النص والمجمل؟

فهرس المحتويات

مقدمة 3

أصول التفسير قانون فهم القرآن 5

لماذا يحتاج المسلم قانونا للتفسير؟ 5

- الضرورة الحضارية 5

- الضرورة التشريعية 6

- الضرورة العلمية المعرفية 6

- الضرورة الثقافية 8

علاقة علم أصول التفسير بالعلوم الشرعية الأخرى في المعرفة الإسلامية. 10

التأليف في علم أصول التفسير 13

الأسس المنهجية لعلم التفسير وأصوله 15

1- حد التفسير وتعريفه 15

2- موضوع علم التفسير وبيان الفرق بين الفعل والعلم فيه 16

تدافع التفسير والتأويل في الاصطلاح 19

الناظر في كتاب الله بين التفسير والتأويل 23

القرآن والبيان 25

خصائص البيان في خطاب القرآن. 25

بيانية الخطاب القرآني وحقيقة البيان 30

خلاصات في تحديد معنى البيان 33

هل يحتاج البيان إلى بيان وكيف أسس علماء الإسلام لقانون فهم القرآن؟ 35

اللغة العربية لغة القرآن وسبيل البيان ومدخل التبين 40

القرآن الكريم عربي اللغة بشري الفهم والقراءة 40

الشعر وأساليب البيان العربي سبيل الكشف عن المرادات القرآنية..43

المعجم ومعاني الألفاظ في تفسير القرآن الكريم 46

علما البيان والمعاني سبيل لفهم كوامن المباني 51

الأمثال والخطب عند العرب الأقحاح ودورها في صناعة الذوق عند المفسر 52

القرآن الكريم يبين بعضه بعضا أو تفسير القرآن بالقرآن الوجه الأول: تفسير الآية بالاستناد إلى الآيات الواردة في موضوعها 54

القرآن الكريم بيان كله..54

ضروب تفسير الآية بالاستناد إلى الآيات الواردة في موضوعها..55

1. شرح الألفاظ وبيانها: (المعجم القرآني)..55

2. درء التداخل المعنوي بين الألفاظ وبين المعاني 57

3. بيان المجمل وتفسيره..58

4. تقييد المطلق 59

5. تخصيص العام 59

6. تقريب المتشابه ودفع الإشكال في الفهم..60

7. تمام المعنى وإتمام الأحكام بالتمييز بين الناسخ والمنسوخ..60

القراءات القرآنية وأهميتها في تفسير القرآن الكريم الوجه الثاني لتفسير القرآن بالقرآن: تفسير الآية بالاستناد إلى القراءات الواردة فيها..62

1- تكثير المعاني الشارحة بعضها بعضا من خلال تباين وجوه القراءات..............................62

- أحدها نوع من القراءات لا دخل له في التفسير..63

- ثانيها القراءات التي لها مدخل في التفسير..63

2- تكثير المعاني المتضافرة في بيان المراد..66

3- درء الغموض في المشتبه من العبارات والمتشابه..66

4. بيان الأحكام الشرعية..68

5. الزيادة في المبنى زيادة في المعنى..68

6. درء الإبهام والغرابة في الألفاظ..69

7. درء الغموض في المعاني..69

8. مزيد بيان للألفاظ والمعاني..69

البيان النبوي وتفسير القرآن الكريم..70

البيان الشرعي يتضافر فيه الكتاب والسنة..70

البيان النبوي تفسير للقرآن..71

1- بيان معاني ألفاظ القرآن وغرائبه..72

2- بيان غيبيات القرآن..72

3- نسخ الأحكام أو تأكيد النسخ..74

4- تأكيد أحكام وحقائق القرآن..74

5- إنشاء الأحكام في ظل كليات القرآن وتأكيدها بمبادئ تشريعية..75

6- بيان المجمل..76

7- تخصيص العام..76

8- تقييد المطلق..77

9- تبيين الظاهر المحتمل..78

"النص" بيان قرآني لا يحتاج إلى بيان..79

ندرة النصوص وتدخل السياق والقرائن لحل الإشكال..83

الإضمار في القرآن الكريم..88

- صور من الإضمار في القرآن الكريم..91

اللزوم وأدواره في فعل التأويل بيانية كلام القرآن المحكم ومقتضى الحال يستدعيان غالبا العدول بالمعاني عن أصل وضعها اللغوي إلى معان غير مباشرة تابعة أو لازمة لها. 97

المجاز أساس في بيانية الخطاب القرآني، ضرورة في تأويله وفهمه..103

غلبة الظنية في آي القرآن وصيانة مطلق التأويل بقواعد التبين وأساليب البيان..103

1- غلبة الظني على القطعي في القرآن الكريم وتعدد التأويل ونظام ذلك..103

2- ظنية المعاني في كتاب الله وقواعد التأويل المجازي..107

أمثلة من ضرورة التأويل المجازي في تفسير القرآن الكريم ليستقيم المعنى ويستوي الفهم..113

المجاز في الأمر..114

المجاز في النهي.. 115
المجاز سبيل للغنى الدلالي وتعدد المعاني في القرآن الكريم.. 116
السياق وتكثير المعاني القرآنية.. 119
خاتمة 126
نماذج امتحانات سابقة في مادة أصول التفسير... 127
فهرس المحتويات 135

ROA PRINT رؤى برينت
Nouvelle facon de vous exprimer
الحي الصناعي زردال، رقم 13
بوقنادل - سلا
البريد الإلكتروني: roaprint.h22@gmail.com



لقد أكرم الله عز وجل العباد بالذكر الحكيم والكتاب المبين، الذي فيه خبر السابقين، وهدي العارفين، وشريعة الموحدين، ونظام الدنيا والدين، وهو الكتاب الذي لا يتم نفعه ولا تُنَالُ فضائله إلا بقراءة وفهم وتدبر وعمل، وكل ذلك يتطلب منهجا في القراءة وأساليب في التأويل ومبادئ للتفسير، وهذا ما اهتم به علماء الأمة على مد عصور تاريخ هذه الأمة، فتركوا لنا إرثا غنيا من التفاسير المستقلة والمندرجة في العلوم المختلفة من علوم البيان والفهم والإعمال لكلام الله عز وجل، وهو ما جمعه علم التفسير، الذي يعد من أشرف العلوم وأرفعها مقاما، علم لا بد لطالب العلوم الشرعية من الإلمام به ومعرفة خصائصه ومناهجه وأصوله وقواعده ومبادئه وأمهات الكتب فيه، وهذا ما شغل الكثير من العلماء الأفذاذ الذين جعلوا غايتهم وضع قانون للتفسير، وهو ما سنسعى لبيان معالمه وخصائصه سائلين الله عز وجل أن ييسر فسحة من الوقت وسدادا في الفكر ونورا في القلب، فالتفسير وما حام في حماه أمر جليل يستدعي نقاء القلوب وصفاء النيات وطهارة النفوس، وهذا ما نرجو الكريم تحقيقه لنا ولطلبتنا الكرام عسانا ننهل من معين النور القرآني العظيم.

الثمن : 23 درهما